محمد رفعت بك

قضيّة فلسطين

اقرأ ٥٦

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٥٨ — أغسطس سنة ١٩٤٧



فلسطين في مفترق الطرق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لعل أحرج مراكز السياسة فى العالم الآن منطقة شرق البحر المتوسط فقد دلت الحربان العالميتان على ما لتلك المنطقة من الأهمية الحربية الخطيرة ففى الحرب الأخيرة كانت معركة العلمين إلى الغرب من الإسكندرية بنحو ثمانين ميلا هى الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر . وفى الحرب العالمية الأولى كانت هزيمة الأتراك ومعهم حلفاؤهم الألمان على قناة السويس عند ما حاولوا غزو مصر فى فبراير سنة ١٩١٥ من الأحداث الهامة التى حولت مجرى الحرب ؛ وها نحن أولاء نرى كثيراً من مشاكل العالم السياسية قد تركزت فى تلك المنطقة العظيمة الخطر فبريطانيا تتقدم لهيئة الأمم المتحدة بموضوع فلسطين ومصر تعد قضية وادى النيل ضد بريطانيا لتعرضها على تلك الهيئة والخلاف قائم على أشده بين الدول بشأن ليبيا والمضايق ، وأمريكا تضرب فى سياسة المنطقة بسهم من ذهب حيناً وبأسهم شركات البترول أحياناً وأخذ ميزان السياسة يتذبذب فى تلك المنطقة ذبذبات عنيفة لا عهد لها بمثلها من قبل .

تلك طائفة من المشاكل التى تغص بها منطقة شرق البحر المتوسط فتعيد إلى الأذهان ما أثارته المسألة الشرقية القديمة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من مساجلات وخلافات بين الدول أدت مرات كثيرة إلى حروب أوربية دامية . وإذا كانت المسألة الشرقية قد نشأت فى الماضى عن ضعف تركيا القديمة فان الاضطراب الحالى فى المنطقة نفسها إنما نشأ عن ضعف انجلترا وانتهاك قواها فى الحرب الأخيرة لا سيما أن خروج فرنسا وإيطاليا من الميدان بعد أن كانتا عاملين قويين فى حوض البحر المتوسط قد أدى إلى اختلال الميزان السياسى فى مياه ذلك البحر فتقدمت روسيا القوية بعد الحرب تريد أن تصحح الميزان بالتسلل إلى البحر الجنوبى وحينئذ تدخلت الولايات المتحدة لتقاوم المد الروسى من جهة ولتسند شريكتها بريطانيا من جهة أخرى .

ولكن عهد الاتفاقات الفردية أو الثنائية قد انقضى وجاءت الكشوف والاختراعات العلمية الأخيرة فألغت أو كادت تلغى المسافات الزمنية والمكانية التى كانت تفصل دول العالم بعضها عن بعض وجعلت من المسائل السياسية المحلية مهما دقت موضوعات عالمية توثر فى مجموع الأمم وتتأثر هذه بها ؛ وليس أدل على هذا التحول من مسألة فلسطين التى تطورت فى مدى خمسة

وعشرين عاماً إلى نزاع عالمى انقسمت من أجله الحكومات والشعوب إلى معسكرين متعارضين يؤيد أحدهما العرب والاخر يؤيد اليهود . وإذا ما سألنا اليهود عن هدفهم من النزاع قالوا إنهم يريدون وطناً قومياً أساسه العقيدة اليهودية . وإذا سئل العرب عما إليه يقصدون قالوا إنا نريد استقلالا سياسياً تتساوى فيه الأديان والأجناس ويهيىء لنا مكاناً نتبوءه كأعضاء فى الجامعة العربية . فأى المشروعين أوفى بحاجات عالمنا الحديث المنكمش الذى يوشك أن يندمج فى كتلتين أو فى كتلة سياسية أو اقتصادية واحدة ؟ أمشروع الدولة الدينية الفردية أم مشروع الدولة السياسية التى تريد أن تكون جزءاً من جامعة موحدة ؟

ثم نسأل عن مبررات اليهود وحججهم فى طلبهم فلا نجد أكثر من العاطفة الروحية التاريخية التى يكفى لاشباعها أن يقام لهم معهد أو معاهد خاصة كالتى يجدها الكاثوليك فى روما أو كالتى يفد من أجلها المسيحيون إلى القدس أو التى يحج إليها المسلمون فى مكة والمدينة . ثم نسمع بعضهم إلى ذلك ينادى بحق اليهود المستمد من تصريح بلفور وما ترتب عليه من وجود أكثر من نصف مليون يهودى فى فلسطين فى مدى ربع قرن ولم يكن عددهم ليزيد على مائة ألف فى الحرب العالمية الأولى . وحينئذ لا يسعنا إلا أن نسأل عن الصفة التى حل بها هؤلاء اللاجئون

فى فلسطين : أجاءوا إليها ممتشقى السلاح فاتحين للبلاد فاحتلوا أراضيها وأستأسر لهم أهلها أذلاء ؟ أم جاءوا لاجئين مسالمين قانعين بما قسم لهم من عيش ورزق ؟ فاذا بحثنا وجدنا أنهم ما جاءوا بهذه الصفة ولا بتلك، وإنما جاءوا مسوقين تدفعهم الوكالة اليهودية وتسندهم الدولارات الأمريكية وتحميهم الحراب الانجليزية ، حتى إذا ما كثر عديدهم وتوطد بنيانهم وذخرت صناديقهم بمال المحسنين من اليهود تنمروا واتخذوا لأنفسهم سلطاناً لم يكن لهم وطالبوا أن يكون الوطن للاجئ دون الأصيل وأن ينحى المواطن العريق ليتحكم الغريب الدخيل). فهل فى التاريخ مثال للاجئ سياسى دخل بلاداً فأجاره أهلها وآووه حتى إذا أنس من نفسه وأصحابه قوة بعد ذلك انقلب على أهل البلاد فطالبهم بالنزوح عنها وأرسل يدعو أهله وبنى عشيرته للهجرة إليها وتأسيس ملك له فيها ؟ وهل تصطنع الدول اصطناعاً آلياً على هذا الوجه ؟ ألا أن الوضع الصحيح للصهيونيين أنهم لاجئون سياسيون وفدوا إلى فلسطين فاذا قبلهم العرب بينهم فمنة وكرامة ولكن عليهم بعد ذلك أن يخضعوا لعرف البلاد وقوانينها وأن يعرفوا قدر النعمة بشكرانها فلا يخونوا بلداً آواهم وجمع شتاتهم وشعباً أغضى عن أخطائهم وقبلهم بين ظهرانيه بعد أن شردوا من بلاد آبائهم وأجدادهم وأنزل بهم من ألوان

التعذيب ما كان خليقاً بأن يصهر نفوسهم ويطهرها من كل موجدة أو مطمع فى حق الشعب العربى وهو الشعب الوحيد الذى أكرم مثواهم وأشركهم فى نهضته منذ العصور الأولى .

ولكن السياسة ويا للأسف قد أحالت ما بين العرب واليهود من ود وإخاء إلى قطيعة وجفوة ؛ وسيجد القارئ فى هذا الكتاب عرضاً تاريخياً لتطورات السياسة فى هذه القضية ؛ ولسنا ندعى لكتابنا انفراداً بشىء لم يأت به الأوائل فما أكثر ما كتبه الكاتبون وأعدته اللجان المختلفة عن فلسطين وكلها جهود قد أخذنا عنها ونهلنا من موردها ثم حاولنا جهد نا أخيراً أن نعرض القضية على على أصولها مرتبطة العناصر متصلة الحلقات خالصة لا عوج فيها ولا زيف ولا تضليل ؛ وقد عرضنا للحلول فى ثنايا القضية ولكننا لم نتعرض للحكم النهائى الذى تركناه لهيئة الأمم المتحدة من جهة ولمحكمة الرأى العام العالمى من جهة أخرى .

وإذا كانت الفكرة العربية قد صادفت رجحاناً فى النهاية فما ذلك إلا لأن المقدمات الصحيحة لا بد أن تؤدى فى القياس المنطقى إلى نتائج صحيحة .

يوليه سنة ١٩٤٧ محمد رفعت

١

الفصل الأول

« وعد غير مسئول »

مكانة فلسطين

(فلسطين هى حلقة الاتصال بين آسيا وأفريقية ، وهى الطريق البرى بين الشمال والجنوب فى منطقة شرق البحر المتوسط ، فيها تلتقى خطوط المواصلات بين مصر وسوريا ولبنان وسائر البلاد العربية ، وإلى سواحلها تنتهى أنابيب البترول العراقية ، ومنها تطل انجلترا على مصالحها فى قناة السويس وشمال افريقية . وفى معابدها المقدسة يلتقى المسلمون والمسيحيون واليهود يحجون إليها فى كل عام يتعبدون فيها ويتبركون بآثارها) ، ولكل طائفة منهم معابد ومناسك ورجال يقومون على شئونها الطائفية ويذودون عن حقوقها إزاء مطامع الطوائف الأخرى .

وإذا كانت كلمة الله سبحانه وتعالى قد جمعت فى القديم بين مشاعر أهل الكتاب جميعاً فإن الأطماع والأثرة وحب الغلبة قد قسمت الناس إلى طوائف وفرقت الطوائف إلى شعب والشعب إلى

فرق فصارت فلسطين على مر الزمن البؤرة التى تتجمع فيها إشعاعات الأديان والمذاهب المختلفة فإذا البؤرة ترسل بدل النور ناراً وإذا النار تعلق بأذيال الناس والمؤسسات ويعجز القائمون بالأمر فى البلاد عن كبح جماحها وحصر شرها فتتعدى الحدود ويكاد لهيبها يلتهم الأخضر واليابس وتستحيل إلى حريق عالمى.

وقد ظلت فلسطين نحو أربعمائة عام تحت الحكم التركى فلم تستيقظ فى أثنائها فتن ولا شبت فيها حروب أو نيران إذ أخلد الجميع إلى الخوف والانزواء والتواكل تحت نير الحكم الرجعى المستبد حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ونادى المنادى يدعو العرب إلى الثورة على الترك استيقظ أهل فلسطين من سباتهم وانحازوا إلى الثوار واستقبلوا العهد الجديد وجيوش الحلفاء وقادتهم بالرضاء والترحاب.

ولكن عاملا جديداً ظهر فى أعقاب الحلفاء وحل فى البلاد على حين فجأة فبدل سلامها حرباً وأمنها خوفاً إذ اقتطع الحلفاء فلسطين من جسم سوريا وسائر البلاد العربية ووضعوها غصباً تحت الانتداب البريطانى من جهة وتحت رحمة وعد بلفور من جهة أخرى فجاءها اليهود من كل صوب وفى ركابهم رؤوس الأموال التى تدفقت من خزائن إخوانهم أنصار الصهيونية المشتتين فى العالم وليس لهم جميعاً من هدف سوى تحويل البلاد إلى

وطن قومى يعيد إلى اليهود ما فقدوه منذ ١٨٠٠ عام .

ومن العجيب أن يتجه الصهيونيين وجهة الوطن القومى فى وقت قام فيه رجال أمثال « ولسون » رئيس الولايات المتحدة « وبريان » الوزير الفرنسى ينادون بإزالة الحواجز بين القوميات والوطنيات المختلفة وتكوين اتحادات عالمية أو قارية تتساوى فيها الشعوب وتتآخى المذاهب الدينية والاجتماعية وتندمج جميعاً فى نظام سياسى واحد. لقد نهض العالم القديم يشكو إفلاس السياسات التى تستند إلى حق السيادة الوطنية الكاملة وراح المفكرون والسياسيون يحاولون جهدهم إنقاذ العالم بإيجاد دولة عالمية . فكيف يصح فى مثل هذه اللحظة أن تجئ طائفة كاليهود كان ولا يزال لها طابع عالمى مرموق وكان أعضاؤها ولا يزالون مثلا طيباً للمواطنين العالميين فتطالب فى النصف الثانى من القرن العشرين بإنشاء وطن خاص بها على أساس العقيدة الدينية البحتة وفى بلاد اختص بها العرب منذ القرن السابع الميلادى وكانت قبل أن تدخل تحت حكم العرب فى يد الرومان البيزنطيين لا فى أيدى اليهود .

تاريخ اليهود وتشتتهم

حقاً لقد كان لليهود دولة متحدة فى عهد داود وسليمان حول سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد وقد امتدت دولتهم تلك من مصر جنوباً إلى أشور شمالا ولكن هذه الدولة ما لبثت أن أصابها الضعف والانقسام على أثر وفاة سليمان فوقعت فى أيدى الأشوريين ثم فى أيدى ملوك بابل وقد دمر الملك نبخذ نصر أورشليم وأحرقها ونقل أهلها إلى بابل سنة ٥٨٦ قبل الميلاد . ثم جاء الفرس واستولوا على بابل فسمحوا لليهود بالعودة إلى بلادهم فعاد منهم كثيريون ولا يزال بقاياهم يكونون منذ ذلك التاريخ عنصراً هاماً من سكان العراق إلى الآن . أما الذين عادوا إلى بلادهم فأقاموا معبدهم وأنشأوا حكومة خاضعة للفرس ثم حكمها البطالمة وجاء الرومان فسقطت أورشليم فى يد القائد الرومانى بمبيوس وظلت فلسطين تحت الحكم الرومانى تتمتع أحياناً بنوع من الهدوء فى ظل لون من الاستقلال المحلى وأحياناً يثور اليهود على ما كان ينالهم من الاضطهاد على أيدى الرومان وخاصة بعد انتشار المسيحية فكانت روما تخضع ثوراتهم حتى نفد صبر الرومان فى النهاية فقرروا فى عهد الامبراطور ادريانوس سنة ١٣٥ م أن يدمروا أورشليم تدميراً ومنذ ذلك التاريخ لم تقم لليهود دولة ولم تكن لهم

حكومة ولم يعد لهم كيان قومى فقد تركوا فلسطين وانتشروا فى مصر والعراق واليونان وإيطاليا وساروا فى ركاب العرب إلى فتوحهم فى شمال أفريقية والأندلس وأصبحت اليهودية فى العالم عقيدة دينية لا جنسية وطنية فقد تزاوج اليهود مع الشعوب التى اختلطوا بها وتحول إلى العقيدة اليهودية كثيرون من غير بنى اسرائيل . ولما رفعت القيود التى كانت تفرضها الدول المسيحية على اليهود تجنسوا بجنسيات البلاد التى عاشوا فيها ولم تعد لفلسطين فى نظر اليهود سوى ذكرى روحية مجردة أشبه بالمكانة التى يخص بها المسلمون مكة والمدينة والمسيحيون الكاثوليك روما .

أما ما يروجه الصهيونيون من أن اليهود فى مختلف الأقطار ينتمون إلى أصل واحد وأن هذا الأصل مرجعه إلى أرض فلسطين فقول ينقضه البحث العلمى الصحيح إذ لو كان صحيحاً لكان اليهود فى جميع أنحاء العالم متشابهين فى السحنة والمنظر والتقاطيع ..

« ونحن لو نظرنا إلى اليهود فى مختلف أقطار العالم اليوم لوجدنا بينهم الشقر ذوى العيون الزرقاء والشعر الأصفر كما نرى بينهم السمر ذوى الشعر الجعد فى هضبة الحبشة والسود فى جنوب الهند والصفر المغوليين فى الصين ولرأينا بينهم الطوال القامة كما نرى الصغار ذوى الرءوس الطويلة العريضة . ويوشك ألا يكون هناك اختلاف بين نوعين من السلالات البشرية إلا وجدنا مثله بين

الجماعات اليهودية فى مختلف القارات . إن التعصب الدينى الذى ساد القارة الأوربية فى العصو الوسطى قد جعل سكانها ينفرون من اتباع الدين اليهودى وأوقع فى وهمهم أن اليهود عنصر غريب عنهم دخيل فى بلادهم وساعد على ذلك ما اضطر إليه اليهود من العزلة الاجتماعية والانفراد بأحياء خاصة بهم وامتناع المعاشرة والاختلاط بينهم وبين أبناء وطنهم من أتباع الدين المسيحى . ومن السهل فى مثل هذه الأحوال أن يشتد النفور بين الطائفتين حتى يقر فى نفس كل طائفة أن الأخرى غريبة عنها وأنها لا تمت إليها بصلة من قريب أو بعيد . وهكذا انتشرت بين الناس تلك الخرافة التى تزعم أن جميع اليهود فى جميع أنحاء العالم هم من سلالة بنى اسرائيل . . . والحقيقة التى لا سبيل إلى نكرانها هى أن يهود أوربا من أصل أوربى صميم وأنهم اعتنقوا الدين اليهودى على أيدى مبشرين من اليهود فى القرن الثالث قبل الميلاد وفيما تلاه من القرون . وقد كانت لهم مستعمرة واسعة فى حوض نهر الراين الشمالى والأوسط . ومن هناك انتشروا فى وسط أوربا وفى شرقها وغربها .

« ثم إن هناك خطأ شائعاً كثيراً ما وقع فيه الناس عامتهم وخاصتهم عند ما يتحدثون عن الشعوب والأجناس

فيخلطون بين السلالة والدين واللغة وبين انتشار قوم من الأقوام وانتشار ثقافتهم أو دياناتهم فإن كل شعب من الشعوب يستطيع أن يعتنق أى دين من الأديان وأن يتعلم أى لغة من اللغات ولكن هذا لا يغير من جنسه أو من سلالته . لهذا وجب أن نفرق بين الإسرائيليين من سكان فلسطين وبين اليهود الذين اعتنقوا الدين اليهودى ولم يكونوا يوماً ما من سكان فلسطين .

« ومن الجائز أن عدداً كبيراً من الإسرائيليين قد هاجروا من فلسطين بسبب ما تعرضوا له من الاضطهاد السياسى أو الدينى ولكن الدين اليهودى قد سبق له الانتشار فى أقطار وجهات عدة فقد ظت الديانة الموسوية تنتشر فى عهد الدولة الرومانية وبعد سقوطها لذلك يجب أن نفرق بين انتشار بنى إسرائيل وبين انتشار الدين اليهودى وأن نذكر أن انتشار العقيدة اليهودية قد أنشأ أجيالا وطوائف من اليهود لا تمت إلى بنى إسرائيل بنسب سوى العقيدة لأننا لو فرضنا جدلا أن الذين حملوا الدين اليهودى إلى الأقطار المختلفة كانوا من أصل فلسطينى فإنهم لم يكونوا سوى قطرة فى بحر من شعوب وسلالات مختلفة لا تربطها بالإسرائيليين رابطة جنسية أو سلالية »(١) .

---

(١) رسالة « المسألة الصهيونيه فى نظر العلم » للدكتور محمد عوض محمد بك

فلو كان لليهود من مقومات الأمم والدول أراض معينة محدودة وتاريخ متواصل وأمانى قومية كافحوا من أجلها وحاربوا المعتدين عليها من أعدائهم كما كان للعرب وللبولنديين مثلا قبل الحرب العالمية الأولى لأدركنا معنى مطالبتهم باسترداد ما يسمونه حقوقهم المغصوبة . ولكن الحركة الصهيونية الأخيرة لم تقم إلا على أسس صناعية بحتة أحاطت بها اعتبارات عاطفية إما قديمة استمدها اليهود من تاريخهم الغابر منذ ألفى سنة تقريباً وإما حديثة تستند إلى تصريح بلفور الذى أعلنه وزير الخارجية الإنجليزية فى نوفمبر سنة ١٩١٧ فى أثناء الحرب العالمية الأولى . أما الاعتبارات التاريخية القديمة فلا أهمية لها ألبتة فقد كانت انجلترا تمتلك فى فرنسا إلى القرن الخامس عشر مقاطعات وأراضى واسعة وكانت لأسبانيا صلات جنسية ولغوية ودينية تربطها بمعظم شعوب أمريكا الوسطى والجنوبية وكانت لمصر علاقات تاريخية ولغوية ودينية تربطها سياسياً ببلاد المشرق فى عصور التاريخ المختلفة ومع ذلك لم نسمع أن شعباً من الشعوب التى ذكرناها قام يطالب باسترداد حقه فى تلك الأقاليم مستنداً إلى الاعتبارات التاريخية المجردة كما يفعل اليهود الآن. حتى إيطاليا الفاشية نفسها لم تستند فى إنشاء دولتها الاستعمارية فى ليبيا إلى مدى ما وصلت إليه الدولة الرومانية القديمة فحسب بل اصطنعت إلى جانب ذلك

أسباباً أخرى ومع ذلك فقد أورثها ادعاؤها الحسرة والندامة فى النهاية .

أثر الثورة الفرنسية :

ولما قامت الثورة الفرنسية كشفت للشعوب عامة وللشعب الفرنسى خاصة آفاقاً جديدة فتطلعوا إلى حياة تسودها العدالة والمبادئ الإنسانية الجديدة التى بشر بها انجيل الثورة وهى الحرية والإخاء والمساواه . وظلت هذه المبادئ تتقاذفها الامال والأطماع بين الشعوب والحكومات الرجعية فتارة تتغلب العناصر الحرة وتعلو معها تلك المبادئ وأحياناً تنهزم العناصر الحرة فتقع المبادئ الإنسانية فريسة لطمع الإنسان وخوفه وأنانيته . ولم يلبث الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت أن حملوا معهم فى حروبهم وحملاتهم أثار الثورة وما دعت إليه من مبادئ جديدة فظهرت هذه الآثار فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر فى أثناء وجود الحملة الفرنسية على مصر وبعد خروجها وأتيح لفلسطين أن تلمس تلك الآثار على أيدى نابليون بونابرت نفسه فإنه ما كاد يستقر فى مصر عقب انهزام المماليك وتدمير أسطوله فى موقعة أبى قير البحرية حتى بدا له أن يفاجئ الأتراك كعادته ويحاول تنفيذ مشروعه العظيم فى الشرق الأوسط فخرج من

مصر فى فبراير سنة ١٧٩٩ على رأس حملة مولفه من ١٢٠٠٠ جندى وأخضع بها فلسطين براً ثم وقف أمام ميناء عكا الحصين يحاصره فامتنع عليه الميناء إذ كان الإنجليز يعاونون المحاصرين من جهة البحر وقد وقفت سفن من أسطولهم أمام الميناء تذود عنه وتزود أهله بكل حاجاتهم . وأخيراً اضطر نابليون إلى رفع الحصار عن عكا بعد أكثر من شهرين ليعود سريعاً إلى مصر ومنها إلى فرنسا وكان بطل الدفاع عن عكا أحمد باشا الجزار .

محمد على الكبير :

ولما غادر الفرنسيون مصر سنحت الفرصة لمحمد على الكبير أن يقيم دعائم دولة مصر الحديثة وتوترت العلاقات بينه وبين تركيا وحاكم عكا فقام محمد على بحملته العربية المشهورة ضد تركيا وكانت فلسطين أول أهدافه فلم يلق صعوبة تذكر فى إخضاعها وكانت الحملة البرية يصاحبها الأسطول المصرى من جهة البحر فلم تقو عكا طويلا على مقاومة إبراهيم باشا قائد الحملة إذ سقطت بعد حصار دام ستة أشهر تقريباً

ولم تكد تمضى تسعة أشهر منذ قيام الحملة حتى أصبحت سوريا بما فيها فلسطين تحت حكم محمد على . وكان الحكم المصرى فى سوريا وما كان يصحبه من إعلان وحدة عناصر الأمة

الأمة والمساواة أمام القانون وتأييد الوحدة العربية واستغلال موارد البلاد فاتحة لجميع الحركات التقدمية فى بلاد المشرق جميعاً .

موسى منتفيورى :

وفى عهد الحكم المصرى لفلسطين ظهر الزعيم الاسرائيلى موسى منتفيورى Montefiore وكان تاجراً إيطالياً تجنس بالجنسية الانجليوية واتصل بالمصاهرة بالأسرة اليهودية المثرية العريقة رتشيلد Rothschild وقد أثرى من التجارة ثراء عريضاً فترك التجارة والأسواق المالية وخصص حياته لخدمة أبناء دينه ، فزار فلسطين لأول مرة فى سنة ١٨٣٧ وتعرف إلى محمد على الكبير وتوثقت بينهما أواصر الود فعاد فى السنة التالية وحاول أن يتفق مع محمد على على إنشاء مستعمرات زراعية لليهود فى فلسطين ولكن محمد على تريث فى إجابته إلى ما طلب ثم توترت العلاقات بين الباشا والسلطان ونشبت الحرب بينهما فلم يقدر النجاح لمشروع منتفيورى. ولما عاد الأتراك إلى حكم البلاد سعى منتفيورى لدى الباب العالى فحصل لليهود من السلطان على جميع المزايا التى كان يتمتع بها الأجانب فى أنحاء الدولة العثمانية . ومات منتفيورى سنة ١٨٨٥ وقد قارب المائة

وكان أول من تكلم باسم اليهود فى أوربا والشرق وشمال أفريقية فى العصر الحديث .

ظهور الحركة الصهيونية :

ثم ظهر الكاتب النمسوى تيودور هرزل Theodor Herzl ونشر فى سنة ١٨٩٦ كتابه عن « الدولة اليهودية » فكان ظهور ذلك الكتاب فاتحة عهد جديد إذ أصبحت الأمانى القومية لليهود بعد إذاعته موضوعاً مدروساً قابلا للتنفيذ وكانت قبل ذلك خواطر مجردة وأحلاماً تهفو لها نفوسهم وتهتف بها قلوبهم. وقد أثار ذلك الكتاب من الحماسة والاهتمام لدى اليهود فى مختلف البلاد ما دعا إلى اجتماع مؤتمر عام لليهود فى مدينة بال بسويسرا فى سنة ١٨٩٧ وفيه حدد اليهود الهدف الذى ترمى إليه حركتهم الصهيونية وهو السعى لإيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين على أن يكون ذلك بمقتضى إجراءات يؤيدها القانون العام . وقد أوضح المؤتمر الوسائل التى تتخذ لتحقيق ذلك فيما يأتى :

(ا) تنمية حركة الاستعمار فى فلسطين بإيفاد عمال للزراعة والصناعة إليها

(ب) تنظيم العناصر اليهودية وتوثيق الروابط بينها بإنشاء المؤسسات المحلية والدولية وفقاً للقوانين المرعية فى الدول المختلفة

(ج) تقوية الشعور أو الوعى القومى اليهودى

(د) اتخاذ الاجراءات حينما تسمح الحال – للحصول على موافقة الحكومات على تحقيق أغراض الصهيونية .

ويتضح من ذلك أن الحركة الصهيونية فى بدء أمرها وإلى ما بعد الحرب العالمية الأولى لم تكن أكثر من دعاية عاطفية اجتماعية يقصد بها اليهود أن يستدروا عطف الحكومات لتدبير مأوى فى فلسطين يلجأ إليه المضطهدون والمشردون منهم فيجدون فيه بلغة من العيش بالعمل فى الزراعة أو الصناعة .

وكان « هرزل » قد عاصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الحركات القومية الاستقلالية التى ظهرت فى إيطاليا بزعامة كافور وفى ألمانيا بزعامة بسمرك فاتجه تفكيره إلى ناحية الوحدة القومية اليهودية وخيل إليه أن الوقت قد حان لجمع شتات اليهود فى أرض المعاد وهى فلسطين أو صهيون كما يسمى اليهود أورشليم . وكانت فلسطين إذ ذاك خاضعة لتركيا وكانت تركيا لا تكاد تفرغ من قمع ثورة أو مواجهة حالة حرب فى إحدى ولاياتها الأوربية أو الشرقية فلما قرر المؤتمر الصهيونى الأول استعمار فلسطين ظن الزعيم اليهودى أن الحالة السياسية فى تركيا أصبحت ملائمة لتحقيق أمانى اليهود وكانوا حتى ذلك الوقت يقيمون

مع الأتراك ومع العرب سواء فى أوربا أو فى شرق آسيا أو شمال أفريقية على أحسن صلات المودة وحسن الجوار — فاذا كانت تركيا قد اضطرت أمام ضغط الدول أن تقر لليونان ولأهل رومانيا والصرب والبلغار والجبل الأسود بحقهم فى الحرية والاستقلال التام أو الذاتى فليس يصعب عليها أن تتخلى عن فلسطين لليهود تحت سيادة تركيا وحينئذ ينفسح المجال أمامهم لتحقيق أحلامهم .

وقد تمكنت هذه الفكرة من نفس هرزل بدرجة جعلته يركز مساعيه لدى الباب العالى ، وما زال يسعى ويجد حتى فاز بمقابلة السلطان عبد الحميد بين سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ وقد ظن السلطان عبد الحميد فى أول الأمر أنه إذا ما استغل ما لليهود من قوة عالمية فى ميدان السياسة والصحافة فقد يكفيه هذا الاستغلال مؤنة قتال أعدائه فى أوربا وكادت الصفقة تتم بينه وبين اليهود لولم يعترض اليهود الانجليز على الثمن الذى طلبه السلطان ففشل المشروع .

وكأنما أرادت انجلترا أن تعوض اليهود عن فشلهم وأن تظهر لهم عطفها إزاء ما كان ينالهم من روسيا عدوة انجلترا إذ ذاك من عنت واضطهاد فعرض وزير المستعمرات الإنجليزى يوسف تشمبرلن على اليهود سنة ١٩٠٣ مساحة من أرض شرق

أفريقية الإنجليزية قدرها ٦٠٠٠ ميل مربع لتكون مركزاً لليهود المشردين والمضطهدين وقد رحب اليهود بما عرضه عليهم البريطانيون وعدوه دليلا على صداقتهم وعطفهم على قضيتهم . ولكنهم ما لبثوا أن انقسموا بشأنه أما العمليون منهم — وهم الذين يهمهم قبل كل شيء حل مشكلة المشردين — فقد رضوا . وأما كثرة اليهود فتمسكوا بالهدف الصهيونى الروحى وهو العودة إلى الأرض التى وعدوا بها ورفضوا أى مشروع من شأنه أن يصرفهم عن أرض فلسطين . فلما عرض الاقتراح أمام المؤتمر الصهيونى عام ١٩٠٥ رفض المشروع . وكان هرزل قد أحس بخيبة أمل مريرة قبل اجتماع المؤتمر فلم يلبث أن قضى نحبه وهو فى مقتبل العمر فمات فى سنة ١٩٠٤ ولم يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره .

ثم قامت الثورة التركية فى سنة ١٩٠٨ فأسقط فى يد اليهود وأوشكت أمانيهم فى الوطن القومى أن تنهار إذ كان زعماء الثورة من الأتراك يحاربون الحركات الانفصالية ويعملون على تتريك الشعوب الخاضعة للدولة وإدماجها جميعاً فى برلمان واحد وتحت دستور واحد ولذلك اكتفى اليهود بما يبذلون من جهود فردية فى مساعدة الفقراء واللاجئين منهم على الإقامة فى فلسطين وإنشاء مراكز زراعية لهم يمولها أغنياء اليهود .

اليهود والحرب العالمية الأولى :

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ أصيبت الحركة الصهيونية بركود طبيعى إذ كانت الصهيونية حركة دولية يشترك فيها يهود من أنحاء العالم وقيام الحرب العالمية كان من شأنه أن يشل النشاط فى الشئون الدولية عامة وأن يعرقل جهود اليهود وخاصة فى البلاد التى منيت بالحرب .

ولكن اليهود كانوا أحذق من أن تغلبهم الحرب حتى ولو كانت عالمية فما كادت تضطرم نيران الحرب حتى نقلوا مكاتبهم إلى عواصم الدول المحايدة التى لم تشترك فى الحرب كسويسرا والدنمرقة ونيويورك وركزوا اهتمامهم بصفة خاصة فى نيويورك وكان لهم فى أمريكا بضعة ملايين من اليهود منهم عدد كبير من كبار رجال الدولة وأصحاب الأعمال الكبرى فى البلاد .

وكان اليهود فى بدء الحرب قد وقفوا بين المتحاربين فى حيرة من أمرهم . فالإنجليز كانوا يحاربون ألمانيا والنمسا وهما إذ ذاك معقل اليهود وميدان نشاطهم الفنى والعلمى والمالى وبهما أهم المراكز الثقافية اليهودية فى العالم إذ لا يخفى أن حركة اضطهاد اليهود لم تقو فى ألمانيا إلا فى العهد النازى . ومع أن انجلترا كانت

تحارب ألمانيا فإنها كانت حليفة روسيا وهى إذ ذاك أعدى أعداء اليهود وقد بلغ عددهم فيها نحو سبعة ملايين أى مقدار نصف عدد اليهود فى العالم كله وكانوا فى العهد القيصرى عرضة لأشد أنواع المقت والاضطهاد لذلك لم تكن هناك حماسة ملحوظة من ناحية اليهود إلى جانب الحلفاء .

الحكومة الإنجليزية واليهود :

ثم بدا للحكومة الإنجليزية أن تستميل إليها الرأى العام الأمريكى لعلها أن تقنع الولايات المتحدة بالاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء فترجح بذلك كفتهم وتنتهى تلك المأساة المدمرة القاتلة التى طال أمدها ولم يتح النصر فيها لأحد الفريقين وكانت انجلترا تعلم أن جانباً قوياً من الرأى العام الأمريكى قوامه العنصر اليهودى فيها وكانت تعلم كذلك أن الحالة فى روسيا قد أصبحت من الحرج والخطورة بحيث باتت الثورة فيها قريبة الحدوث وأصبح خروج الروس من الحرب مترقباً فى أى وقت . وكانت انجلترا إلى ذلك تعد عدتها لغزو فلسطين وسوريا بعد أن مهدت لذلك بمعاضدة الثورة العربية على الترك وكانت انجلترا على علم بمطامع فرنسا فى لبنان وسوريا ومنطقة المشرق فلم تشأ أن تنتهى الحرب دون أن تمكن لنفسها فى منطقة الشرق الأوسط

ليكون لها إزاء فرنسا سند تأمن معه على مصالحها فى تلك المنطقة العظيمة الخطر .

وعلى ذلك سافر مستر بلفور وزير الخارجية الإنجليزية فى أوائل سنة ١٩١٧ لمفاوضة زعماء اليهود فى الولايات المتحدة وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ قبل دخول الجنرال اللنبى لفلسطين بأسابيع قليلة أعلن تصريح بلفور الشهير ضمن خطاب وجهه الوزير المذكور إلى لورد رتشيلد زعيم اليهود فى انجلترا وفيه يقول :

« إن الوزارة الإنجليزية تنظر بعين الرضاء إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وإنها ستبذل أقصى جهدها لتيسير تحقيق هذا الغرض . على أنه يجب أن يكون مفهوماً فهماً صحيحاً أنه لن يعمل شىء مع هذا يمس الحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية التى تقيم فى فلسطين أو يمس الحقوق والمزايا السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى مملكة أخرى » .

وظاهر من هذا التصريح أن الحكومة الإنجليزية لم تقصد بتصريحها إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومى لليهود ولكنها أرادت فقط تدبير وطن قومى لليهود فى فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر ثم إن الحكومة الإنجليزية لعلمها بما قد يصادف هذه السياسة

من اعتراض رأت أن تقيد تصريحها بشرطين على جانب عظيم من الأهمية :

الأول أن وجود الصهيونيين فى فلسطين لن يؤثر فى حالة أصحاب البلاد من الوجهتين الدينية أو المدنية

والثانى أن اليهود فى الخارج لن يعتاضوا بفلسطين عن أوطانهم التى يعيشون فيها و يتمتعون بجنسياتها . وذلك لأن انجلترا كانت تعلم أن هناك فريقاً قوياً بين الإنجليز والأمريكان كانوا يخشون أن يؤدى إنشاء الوطن القومى إلى أن يفقدوا جنسياتهم فى البلاد التى ينتسبون إليها وأن يتعرض اليهود فى الممالك الأخرى إلى نوع جديد من الاضطهاد أو التشريد ما دام قد أصبح لهم موطن يلجأون إليه . وقد حدث فعلا فى ألمانيا ما خشى اليهود أن يكون فإن الحركة العدائية ضد اليهود المعروفة والتى بلغت منتهى شدتها فى عهد تفوق النازيين فى أوربا كان من أسبابها وجود وطن قومى لليهود .

على أن أهم ما يعترض به على وعد بلفور أن بريطانيا بتصريحها هذا قد أصدرت قراراً سياسياً هاماً فى شأن إقليمى دون أى اكتراث بالمبادئ الديمقراطية وأنها أخلت بالوعود التى قطعتها للعرب قبل ذلك بسنتين وكان من أثرها أن قام العرب

بزعامة الشريف حسين أمير مكة وأبنائه بثورتهم ضد الأتراك وبتأييدقضية الحلفاء بدمائهم وأرواحهم مقابل الحرية والاستقلال اللذين وعدوا بهما .

اتفاق الحكومة الإنجليزية والعرب :

وهنا تعترضنا انجلترا بتصريحاتها السياسية التى أكدتها رسمياً فى سنة ١٩٣٩ حين نشرت الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين فأنكرت فيه أن الغرض من إنشاء الوطن القومى فى فلسطين هو التمهيد لإقامة دولة يهودية فى البلاد ضد رغبة العرب وأنها تنفى ذلك نفياً باتاً كما أنكرت أنها وعدت العرب بضم فلسطين إلى الدولة العربية التى كان الشريف حسين أمير مكة يفاوض الإنجليز بشأن انشائها — فى الخطابات التى تبودلت بين الشريف حسين والسير هنرى ماكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر فى سنة ١٩١٥ نيابة عن الحكومة الإنجليزية . وفحوى تلك الخطابات أنه فى مقابل قيام الثورة العربية ضد الأتراك فى الأقاليم الشرقية تتعهد له الحكومة الإنجليزية بالاعتراف باستقلال البلاد العربية وقد حددها الشريف حسين بحدود تدخل فى نطاقها فلسطين وسوريا والعراق فضلا عن شبه جزيرة العرب ما عدا مستعمرة عدن فذكر أن الأراضى العربية يحدها شرقاً خليج العجم وجنوباً

المحيط الهندى وغرباً البحر المتوسط وشمالا أورفا وأذنة فى آسيا الصغرى . وقد أرادت الحكومة الإنجليزية أن تتحفظ فى ردها فاستثنت البلاد الواقعة غربى دمشق وحمص وحلب وحماة بحجة أن الكثرة فى تلك البقاع ليست عربية وقد رد الشريف حسين على ذلك بأن تلك البقاع عربية وأن وجود المسيحيين بها لا يمنع أن يكونوا عرباً فالمسلمون والمسيحيون أخوة من جنس عربى واحد وقد أقر الشريف حسين مبدئياً وجهة النظر البريطانية فيما يخص أقليم أذنة فى الشمال الغربى ومصالح فرنسا فى لبنان والحكومة الإنجليزية فى العراق . وقد كانت الحرب العالمية الأولى فى أوج شدتها فلم يشأ الشريف حسين أن يؤدى تشدده إلى إساءة مركز الحلفاء من الوجهة الحربية ولذلك قبل بعض تحفظات بريطانيا ولكن فلسطين لم تكن قطعاً من بين هذه التحفظات بدليل أنه لم يأت ذكرها نصاً ولا ضمناً فى الخطابات التى أرسلها ما كماهون ولا فى خطابات الشريف حسين . ولا يستطيع منصف أن ينظر إلى خريطة بلاد المشرق ولا يشهد بأن فلسطين غير واقعة فى غرب دمشق وحلب الخ . وأن المقصود بالأراضى الواقعة غربيها إنما هى لبنان وهو الذى كانت تتجه إليه مطامع فرنسا بصفة خاصة . وقد تألفت لجان من العرب ومن الإنجليز لفحص الخطابات التى تبودلت والبت فيما إذا كانت فلسطين

أولم تكن مستثناة من وعد الاستقلال الذى وعد به العرب يستطع الإنجليز تأييد نظريتهم ورأت اللجنة أن هناك غموضا وإبهاماً فى العبارات التى تضمنتها الخطابات . ولكن الحكومة الإنجليزية من جانبها قد أكدت استبعاد فكرة دخول فلسطين فى نطاق الاستقلال العربى .

المعاهدات السرية :

ومع ذلك فإن نكث الحكومة الانجليزية لم يقف عند إعلانها تصريح بلفور دون أى تحفظ يصون حقوق العرب ودون أن تشاور فى ذلك حليفها الملك حسين، بل ظهر فيما بعد أن ثمة معاهدة سرية كانت قد عقدتها فى سنة ١٩١٦ بينها وبين فرنسا وروسيا وقد سميت هذه المعاهدة باسمى منشئيها الإنجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو «Sykes-Picot» وكان الغرض منها تقسيم مناطق النفوذ فى أملاك تركيا بعد الحرب بين الدول الثلاث . ومع أن الاتفاق مع العرب كان قائماً فإن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تطلع حليفها العربى على نصوص المعاهدة التى احتفظ بها الحلفاء سراً حتى فضحته روسيا بعد ثورتها الكبرى ووصل علمها إلى تركيا فبلغته هذه إلى الملك حسين لعله حين يطلع على خيانة حليفته الكبرى بريطانيا

أن ينقلب عليها فى المرحلة الأخيرة من الحرب كما انقلب على تركيا من قبل .

وما أكثر المعاهدات السرية التى لجأ إليها الحلفاء وهم فى غمرة الحرب العالمية الأولى . فنى سبيل الاحتفاظ بروسيا عقدوا معها معاهدة سرية حققت لروسيا حلمها القديم فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق . وفى سبيل جذب إيطاليا بعيداً عن دول الوسط وقريباً من الحلفاء عقدوا معها معاهدة سرية تتيح لها بعد الحرب أن تحقق أمانيها فى شمال ايطاليا وفى دلماسيا وجزر الدوديكانيز وفى آسيا الصغرى . وكانت المفاوضات بين بريطانيا والشريف حسين بشأن ثورة العرب سرية بدرجة جعلت بريطانيا تخفى أمرها حتى عن حليفتها فرنسا فكان هذا الإسرار من العوامل التى جعلت فرنسا تضمر الكراهية لمشروع الوحدة أو أو الجامعة العربية وتناصب العرب العداء أينما كانوا . وما كان لانجلترا أو للحلفاء أن يقفوا أمام أى عقبة فى سبيل تغذية آلة الحرب بما ييسر دورانها وتمكينها فى النهاية من الغلبة على القوى الجبارة التى كانت دول الوسط تسلطها وتؤلبها ضد الحلفاء ؛ فهل كان غريباً إذن أن تجئ المعاهدات السرية التى عقدها الحلفاء وهم يعانون أشد ويلات الحرب — غامضة مبهمة مرتجلة متناقضة ؟ وماذا كان يهم الحلفاء من كل هذا والحرب مستعرة ؟

أليس فى الوقت متسع بعد انتهاء الحرب وإحراز النصر لتصحيح تلك الأخطاء ؟ وهل كان أحد يدرى كيف يكون الوضع بين المتحاربين متى وقفت رحى الحرب وأعلنت الهدنة ؟ لقد أرادت انجلترا أن تعبىء جهود العرب واليهود والأمريكان للحرب ولم تعد تهمها الوسيلة بعد ذلك ! وقد فطن الرئيس وودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة عقب انضمام أمريكا إلى صفوف الحلفاء إلى مبلغ ما تورطت فيه بريطانيا وسائر الحلفاء من عقود ومحالفات وتصريحات يناقض بعضها بعضاً فنص فى النقطة الأولى من نقطه الأربع عشرة التى أعلنها للملأ فى يناير سنة ١٩١٨ آخر سنى الحرب على بطلان الاتفاقات السرية أو الخصوصية بين الدول ووجوب قيام العلاقات الدبلوماسية على أساس من الصراحة والعلانية ووعد بأن تكون مواثيق الصلح الذى تنتهى به الحرب القائمة حينذاك مواثيق صريحة يوصل إليها بمفاوضات علنية صريحة .

وقد خدعت الشعوب ببريق هذه المبادئ الجديدة فطلب الألمان الهدنة على أساسها وقام الناس من كل حدب يطالبون بتطبيقها والأخذ بها ولكن الحلفاء لم يعلنوا رسمياً موافقتهم على هذه النقط كما أنهم لم يتعهدوا بمراعاتها ولذلك ما كادت هذه

المبادئ تصل إلى عتبة مؤتمر الصلح بفرساى حتى اعتراها الهزال والضعف وما زالت تساورها الأسقام والعلل حتى لفظت أنفاسها الأخيرة بين يدى ولسون نفسه وغرمائه من دهاة الاستعمار فى أوربا أمثال كليمنصو ولويد جورج . وكان ساسة الدول الكبرى يجتمعون سراً للاتفاق على القرارات الاقليمية التى ستتناولها معاهدات الصلح فى فرساى مخالفين بذلك المبدأ الأول من مبادئ ولسون وظلت السرية تخيم على جو المؤتمر حتى أعلنت قراراته ولم يتحقق من مبادئ ولسون الكبرى سوى إقرار ميثاق عصبة الأمم . وحتى هذا لم يكن مقدراً له النجاح فى النهاية لازورار أمريكا عن كل ما يتعلق بمؤتمر فرساى وقراراته وعودة الولايات المتحدة إلى عزلتها السياسية فى أمريكا ولم تعمد الدول إلى العلنية فى مناقشاتها إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وقد أقرتها هيئة الأمم المتحدة فى اجتماعات مجلسها وجمعيتها العامة ولجانها .

ولقد راحت انجلترا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى تتلمس الأعذار من عدم التقيد بنصوص كثير من الاتفاقات السرية فاحتجت بانسحاب روسيا من الميدان عقب قيام ثورتها الكبرى فى مارس سنة ١٩١٧ وإغفال الحكومة البلشفية لشروط تلك المعاهدات

وكان اتفاق سيكس — بيكو من الاتفاقات التى أغفلت بعد الحرب ولم يقدر لها التنفيذ . ولكن نظرة إلى الشرط الخاص بفلسطين يدلنا على مبلغ ما أصاب السياسة الانجليزية حينذاك من القلق والتلون ؛ فقد جاء فى البند الثالث من الاتفاق :

« تنشأ فى الجزء الملون باللون البنى على الخريطة المرافقة (والمقصود فلسطين) إدارة دولية لا يتقرر شكلها النهائى إلا بعد استشارة روسيا والاتفاق مع سائر الحلفاء وممثلى شريف مكة » .

وجاء فى البند الرابع أن تعطى بريطانيا ميناء حيفا وعكا .

وظاهر من تاريخ هذا الاتفاق أبريل — مايو سنة ١٩١٦ أنه قد تم بعد الاتفاق مع الشريف حسين على استقلال البلاد العربية وقبل إعلان وعد بلفور بنحو سنة ونصف . فهل كان النص فى الاتفاق على أخذ رأى الشريف حسين بشأن الحكومة المستقبلة لفلسطين ملحوظا فيه زعامته للعرب حينذاك ولم يجد الحلفاء من يمثل عرب فلسطين أمامهم سواه . أم كان ذلك شعوراً من الحكومة الانجليزية بوخز ضميرها السياسى إذ كانت قد ارتبطت مع الشريف حسين بشأن أرض فلسطين فاشترطت لذلك استشارة الجهة التى سبق الارتباط معها قبل البت فى المصير الجديد ؟

قد تكون الحكومة الأنجليزية فكرت فى الغرضين معاً حين

وقع ممثلها ذلك الاتفاق وأثبت هذا التحفظ . ولا شك أن إثباته مؤيد للنظرية الأولى القائلة بأن الحكومة الانجليزية لم تستثن فلسطين من الأراضى التى كانت ستدخل فى نطاق الاستقلال العربى .

•

تحول الحكومة الانجليزية إلى الصهيونية :

أما تحول السياسة الانجليزية من الفكرة الدولية إلى الفكرة الصهيونية فتفسيرها هين . ففى سنة ١٩١٦ حين عقد الاتفاق كانت روسيا القيصرية لا تزال بالميدان وكان لها بفلسطين مصالح دينية اضطرتها يوماً إلى امتشاق الحسام فى حرب القرم فى منتصف القرن التاسع عشر ضد تركيا وحلفائها من الانجليز والفرنسيين فلم يكن سهلا على انجلترا إذ ذاك أن تلون فلسطين بأحد اللونين الفاقعين الأحمر الانجليزى أو الأزرق الفرنسى ولم تجد معدى من تلوينها باللون الدولى البنى القاتم ثم لم تكد تمضى سنة واحدة حتى انكشف الستار عن ثورة جامحة فى روسيا لم تلبث روسيا بعدها أن خرجت من الحرب فخلا منها الميدان ولم يعد هناك ما يمنع انجلترا أن تعيد النظر فى اللون الدولى الذى لونت به فلسطين إذ كانت تعلم أن تلك الدولية ستحد من حريتها فى العمل فى تلك المنطقة الاستراتيجية الخطيرة

وستكون سلاحاً ماضياً قد تستعمله فرنسا وغيرها من الدول ضد مصلحتها وكانت تعلم مدى الفساد الذى ينجم من نظم الحكم الدولية فرأت أن تخرج من مأزق سيكس بيكو بإعلان تصريح بلفوريا ليتها ما فعلت أو ليتها حين فعلت فأعلنت تصريح بلفور أبقت معه نظام الحكم الدولى الذى قرره اتفاق سنة ١٩١٦ . فلو أنها فعلت ذلك لأنقذت سمعتها مما أصابها من ضعف وسوء قالة فى نظر العالم أجمع .

ولكن الحرب العالمية الأولى بقضائها على الامبراطوريات الأربع الكبرى فى العالم — وهى روسيا وألمانيا والنمسا وتركيا — وانسلاخ ما كان يتبع بعضها من ولايات ومستعمرات قد أثار مطامع الدول المنتصرة بعد الحرب إلى التوسع والاستعمار لا فى مجاهل أفريقية وجزر المحيطات حيث الشعوب البدائية فحسب بل فى أوربا نفسها وفى منطقة ساحل البحر المتوسط حيث تسكن الشعوب ذات المدنيات القديمة التى كانت تصبو إلى الحرية والاستقلال .

وكان لبريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما فى أوربا وخاصة بعد انسحاب ولسون والولايات المتحدة أن يقتسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها وكانت فرنسا تدعى لنفسها مركزاً

ممتازاً فى الشرق الأوسط فقد كانت هى أولى الدول الأوربية التى تعاقدت مع سلطان تركيا فى القرن السادس عشر ووضعت بذلك أساس الامتيازات السياسية التى كان الأوربيون يتمتعون بها داخل الولايات العثمانية كما كانت فرنسا تعتبر نفسها حامية الشعوب الكاثوليكية داخل الدولة وخاصة فى لبنان حيث يسكن الموارنة الكاثوليك وقد أدت هذه الحماية يوماً إلى أن احتل جيش فرنسى لبنان فى سنة ١٨٦٠ مدة تسعة أشهر حتى يؤمن الطائفة الكاثوليكية ضد المذابح والثورات الطائفية التى كانت تقوم آونة بعد آونة فى تلك الأرجاء . هذا فضلا عن الثقافة اللاتينية الفرنسية التى كانت تبثها الإرساليات الدينية وكلية الجزويت فى بيروت ومدارس الديانات المنتشرة فى أنحاء البلاد لذلك طالبت فرنسا بحقها فى الانتداب على منطقة شرق البحر المتوسط كله .

ولكن السياسة الانجليزية التى كانت على علم باتجاهات الفرنسيين ومطامعهم فى الشرق دبرت الاحتفاظ بفلسطين فقررت النظام الدولى أولا ثم شفعته كما ذكرنا بتصريح بلفور لتتفادى الاصطدام بفرنسا .

وكانت انجلترا تعلم أن أمام النهضة العربية فى الشرق الأوسط مستقبلا سيعج بالأحداث والاحتمالات وأن مصالحها فى تلك المنطقة التى تسيطر عليها قناة السويس تقتضى أن تكون بيد انجلترا قواعد استراتيجية ترقب منها تطور الحركة العربية من جهة وتشرف منها على مصالحها فى القناة من جهة أخرى متى أذن الوقت بجلائها عن مصر استجابة للروح الوطنية التى كانت تتأجج فى مصر حينذاك .

وكان الانتفاع بآبار البترول التى اكتشفت قرب الموصل وكركوك فى العراق يقتضى توصيلها بأنابيب إلى ساحل البحر المتوسط حتى تفيد منها المصانع والسيارات والطائرات فضلا عن الأساطيل البحرية التى بدأت تستخدم الوقود الأبيض وتعمل على إحرازه وادخاره بكافة الطرق . ولم يكن أصلح فى نظر انجلترا من ساحل بلاد المشرق وميناء حيفا فى فلسطين .

فإذا أضفنا إلى هذا كله تقدم الطيران وما تمتاز به فلسطين من موقع جغرافى قد يجعلها واسطة الاتصال بين الشمال فى تركيا ولبنان وسوريا وبين الجنوب فى مصر وبين البحر المتوسط والشرق الذى ينتهى بالعراق وخليج فارس حيث مصالح بريطانيا

المؤسسة فى البترول الذى تنتجه الشركة الانجليزية الايرانية فى إيران التى يجعلها انتاجها من البترول خامس دولة فى العالم أدركنا مبلغ اهتمام بريطانيا بأن تنتدب على فلسطين .

الفصل الثانى

« انتداب وحكومة داخل حكومة »

نظام الانتداب :

كان نظام الانتداب من النظم الجديدة التى ابتدعها ميثاق عصبة الأمم وارتبطت به جميع الدول التى اشتركت فى مؤتمر الصلح فى فرساى إذ وُضع الميثاق فى مقدمة جميع المعاهدات التى أبرمت حينذاك .

وقد جاء هذا النظام بديلا من سياسة « الضم » و « الاستعمار » التى كانت الدول تسير وفقها قبل الحرب العالمية الأولى. وقد يقول المتشائمون إن الانتداب غطاء سياسى للعملة الاستعمارية المزيفة القديمة . ونحن مع اقرارنا بأن ثمة دولا مثل فرنسا لم يغير نظام الانتداب طبيعة حكمها فى البلاد التى انتدبت لها لا يسعنا أن ننكر الأثر الأدبى الذى اقترن بنظام الانتداب فبعد أن كانت الشعوب التى تضم أو تستعمر تفقد بذلك كيانها وشخصيتهاوتنزل

فى مستواها السياسى إلى درك التبعية جاء نظام الانتداب فمحا كلمة الاستعمار البغيضة وخاصة فى البلاد الناهضة التى كانت تتمتع برقى ظاهر فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأصبحت الدول المستعمرة تعمل فى البلاد المنتدبة لها باسم العصبة وتسأل أمام لجنة دائمة فى العصبة عن أعمالها فى تلك البلاد كما كان عليها أن تقدم للجنة الانتدابات تقارير سنوية عن أحوال البلاد الواقعة تحت انتدابها.

وينص الدستور الذى جاء فى الميثاق خاصاً بنظام الانتداب على مزايا وشروط لو أن الحلفاء راعوها بدقة فى تصرفاتهم فى البلاد التى انتدبوا لها لخدم الانتداب الأغراض العليا التى أملها من ورائه ولسون وسائر المفكرين السياسيين ولجاء الانتداب خيراً وبركة على الشعوب التى خضعت له من جهة وعلى العالم من جهة أخرى . ولكن الحلفاء مع الأسف راعوا الانتداب بالشكل دون الجوهر وبالشفاه دون القلوب ولم يروا فيه إلا عنواناً جديداً للنظام العتيق البالى الذى تعودوه طوال القرون الماضية ولذلك جاءت نتيجة الانتداب كنتيجة الصراحة والعلنية فى العلاقات الدبلوماسية بين الأمم مخيبة للآمال التى علقت عليها .

وتنص المادة الثانية والعشرون من الميثاق وهى الخاصة بالانتداب على أنه « فى حالة الشعوب الراقية التى كانت تحت

حكم الأتراك والتى وصلت فى رقيها إلى درجة تدعو إلى الاعتراف مؤقتاً باستقلالها تقصر مسئولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة حتى تستطيع تلك الشعوب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها » كما نصت فوق ذلك على وجوب استقصاء رغبات الشعوب كعامل مهم فى اختيار الدولة التى تنتدب لهم .

فهل راعت بريطانيا عند ماأرادت إعلان انتدابها على فلسطين شيئاً مما نصت عليه هذه المادة ؟

لقد كانت أدنى درجات العدالة بعد أن جلا الأتراك عن البلاد تقتضى بحسب نص المادة إعلان استقلال البلاد ثم استفتاء أهلها فى أى الحكومات تنتدب لمساعدتهم وكان على الحلفاء متى تم ذلك أن يتركوا لممثلى العرب حق الاتفاق مع اليهود على شروط المهاجرة إلى بلادهم والاقامة بها ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل. فما كاد الأتراك ينسحبون من البلاد وتدخل جنود اللنبى حتى أقام الانجليز حكومة عسكرية فى والبلاد وجاءت فى أثرهم اللجنة الصهيونية أو الوكالة اليهودية وكثير من الجماعات اليهودية التى كانت تعمل فى بلدان أوربا المختلفة لترويج الدعوة الصهيونية

وكان من أول مظاهر نشاطهم فى البلاد تأسيس الجامعة العبرية فى القدس سنة ١٩١٨ وقد اقتصرت أول الأمر على إنشاء

أقسام للبحوث الكيميائية والبكتريولوجية وطب المناطق الحارة والبحوث الشرقية اليهودية. وقد حضر لورد بلفور صاحب التصريح المشهور بنفسه إلى فلسطين ليفتتح الجامعة العبرية رسمياً فى سنة ١٩٢٥ .

وأما استفتاء الشعب فى اختيار الدولة التى تنتدب له فان الحلفاء حين عرفوا إصرار الرئيس ولسون على تكوين لجنة دولية لاستطلاع آراء العرب لم يسعهم سوى الموافقة فى الظاهر ولكنهم أهملوا تعيين ممثليهم ، واقتصر الأمر على إيفاد المندوبين الأمريكيين كنج وكرين King and Crane فجال العضوان فى أرجاء فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وانتهيا إلى نتيجة بررتها التطورات التى حدثت فيما بعد ولكنها أهملت فى وقتها كما أهمل غيرها من المقترحات والمبادئ التى حملها ولسون معه من العالم الجديد فقد اقترحت اللجنة بناء على ما جمعته من الآراء وما تحققته من أقوال الشهود أن يتكون اتحاد من سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن بزعامة الأمير فيصل كملك دستورى وأن تدعى الولايات المتحدة للانتداب مؤقتاً على الدولة الجديدة . فإذا لم تقبل الولايات المتحده فإن الرأى العربى يقبل أن تنتدب بريطانيا . وأما فرنسا فقد نحتها اللجنة عن الانتداب فى المنطقة مؤكدة أن

تحرياتها بين طبقات الشعب هى التى أقنعتها بالآراء التى ذكرتها .

وقد حذرت اللجنة الدول من فتح باب الهجرة على مصراعيه للصهيونيين كما فرقت بين حق الصهيونيين فى الوطن القومى وبين ادعاءاتهم بشأن إنشاء دولة صهيونية وقالت إن مثل هذه الدولة لا يمكن أن يتم إنشاؤها دون أن تتعرض حقوق العناصر غير اليهودية لأشد الأخطار سواء من الوجهة الدينية أو المدنية .

قالت : « وقد ثبت لنا من تحرياتنا مع زعماء الصهيونيين أنهم إنما يهدفون إلى نزع ملكية الأراضى التى بأيدى غير اليهود بكافة طرق الشراء والاستحواذ ، وأن تسعة أعشار سكان فلسطين يرفضون المشروع الصهيونى رفضاً تاماً وتؤيدهم فى موقفهم جميع شعوب الشرق الأوسط فإذا أقيم المشروع ضد رغبة الشعوب وإرادتهم فعلى الحلفاء أن يستعدوا لتنفيذه بأسنة الحراب » .

ولكن الحلفاء لم يلقوا بالا إلى مقترحات اللجنة واعتبروا تقريرها وثيقة خاصة قدمها المندوبان الأمريكيان إلى الرئيس ولسون خاصة فليس فيها ما يقيدهم وعلى ذلك سار الحلفاء

فى موضوع فلسطين وبلاد المشرق وفق الخطط القديمة فاستبد مجلس الحلفاء الأعلى المكون حينذاك من مندوبى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وقرر فى موتمر سان ريمو San Remo فى أبريل سنة ١٩٢٠ انتداب انجلترا على فلسطين وتقدمت انجلترا إلى مجلس العصبة تطلب إليها أن تبارك هذا الانتداب بموافقتها وقد صدر قرار الانتداب فى سنة ١٩٢٢ وفى رأس وثيقة الانتداب وعد بلفور لليهود حتى يكون له من الحرمة والقداسة ما للمعاهدات الدولية وخاصة بعد أن وافقت عليه كل من الولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا . وإنه لعجيب حقاً أن تضمن معاهدة دولية صورة خطاب قديم أرسله وزير الخارجية البريطانية إلى أحد أفراد اليهود منذ نحو ثلاث سنوات مضت . ولو كان الخطاب موجهاً إلى رئيس دولة معينة أو لو كان تصريحاً عاماً أصدرته الحكومة البريطانية لالتمسنا للحلفاء عذراً ولكنه النفوذ الصهيونى الذى كان ولا يزال يتغلغل فى دقائق السياسة الدولية هو الذى جعل من هذا التصريح سنداً قانونياً دولياً يحتج به اليهود عند الحاجة .

وثيقة الانتداب على فلسطين :

ولم تقتصر وثيقة الانتداب على إدماج تصريح بلفور فى مقدمتها ولكنها أشارت فى بنودها إلى الهيئة اليهودية غير الرسمية وأضفت عليها صفة ينطبق عليها الوضع المعروف باللاتينية

imperium in imperio حكومة داخل حكومة . فقد جاء فى المادة الرابعة من الوثيقة :

« تعترف حكومة الانتداب بإحدى الوكالات اليهودية كهيئة عمومية a public body يكون الغرض منها أن تنصح وتعاون الإدارة بفلسطين فى كل ما له علاقة بانشاء الوطن القومى لليهود من المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها . »

وزادت المادة على ذلك أن جعلت لهذه الهيئة أن تشترك وتتعاون مع الإدارة وتحت رقابتها فى النهوض بمرافق البلاد جميعاً .

ونصت المادة على أن الهيئة الصهيونية هى الوكالة اليهودية المشار إليها وتبقى كذلك ما دام تكوينها ونظامها مقبولا فى نظر حكومة الانتداب .

ولم يقتصر اشتراك الهيئة الصهيونية فى الحكم على تعاونها مع الإدارة الفلسطينية بل إن المادة المذكورة قد جعلت للهيئة الصهيونية حق التشاور مع حكومة جلالة الملك فى لندن رأساً بشأن الاجراءات التى تتخذ لتأمين تعاون جميع اليهود الذين يرغبون فى إنشاء الوطن القومى لليهود .

وجاء فى المادة السادسة أن واجب الإدارة فى فلسطين أن تيسر هجرة اليهود إلى فلسطين وأن تشجعهم بمعاونة الهيئة

الصهيونية على الإقامة بالأراضى بما فى ذلك الأراضى البور والأراضى التى تملكها الحكومة. واشترطت الحكومة فى تيسير هجرة اليهود ألا يؤثر ذلك فى حقوق السكان الآخرين أو يضر بمركزهم . وكذلك تضمنت الوثيقة رعاية الحرية الدينية لجميع الطوائف .

وجاء فى المادة الثالثة أنه ينبغى أن تشجع الدولة المنتدبة على إقامة حكومة ذاتية فى البلاد وهو شرط ولد ميتاً إذ أن الحكومة المنتدبة لم تعمد إلى تنفيذه إلا فى سنة ١٩٣٩ قبيل قيام الحرب الأخيرة ولا يزال عدم وفاء انجلترا بهذا الشرط دليلا صارخاً على تحيزها لليهود أو تخوفها منهم ذلك لأن قيام الحكم الذاتى كان من شأنه إبراز قوة الكثرة وتضاؤل شأن الأقلية من اليهود .

وأول ما يلاحظ بشأن وثيقة الانتداب أن الحكومة الانجليزية قد اعترفت رسمياً بالوكالة اليهودية أو الهيئة الصهيونية وأسبغت عليها حقوقاً جعلتها شريكة للحكومة فى مسئولياتها دون أن يقابل ذلك شيء يماثله خاص بالكثرة العربية فى البلاد . وقد كان ذلك التحيز الظاهر من جانب حكومة الانتدب أول معول هدمت به انجلترا ما كان العرب يزعمون أنه يعرفونه عن الإنجليز فى أثناء الحرب وقبل ذلك من حيث العدالة والإنصاف والاستقامة فى المعاملة .

وقد كانت خيبة أمل العرب فى الانجليز ويأسهم من عدالتهم منذ وضحت نياتهم رسمياً فى وثيقة الانتداب من أهم العوامل التى ساعدت على قنوط العرب والتجائهم إلى العنف فى ثوراتهم التى ما فتئت تهب وتخبو على اختلاف الظروف طوال عهد الانتداب .

وأهم من ذلك أن ما جاء فى ميثاق عصبة الأمم ونصت عليه المادة الثانية والعشرون من أن الشعوب تختار الدول التى تكلف الانتداب عليها وأن روح الميثاق والوعود التى طالما أطمأن إليها العرب فى أثناء الحرب من الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصايرها أن هذا وذاك قد أغفلا اغفالا تاماً — فإن العرب وهم أصحاب الشأن أولا وأخيراً لم يستشاروا فى تصريح بلفور ولا فى اختيار الدولة المنتدبة . وإذا كانت الحكومة الانجليزية تستند فى تبرير انتدابها إلى نتيجة الاستفتاء الذى قام به المندوبان الأمريكيان إذ أنهما اقترحا انتداب انجلترا إذا انسحبت الولايات المتحدة فقد بقى أن العرب فى فلسطين لم يستشاروا فى إعلان تصريح بلفور ولا فى كيفية تنفيذه وأن ما قام به الصهيونيون وحكومة الانتداب من إدماج التصريح فى قضية الانتداب لا يعطى التصريح سنده القانونى ما دام العرب الذين آلت إليهم السيادة قانوناً بعد خروج الأتراك لم تؤخذ موافقتهم على المشروع

وستظل هذه المخالفة وما صحبها من ظلم وجور عالقة بأذهان العرب في فلسطين حتى تجاب مطالبهم .

بين العرب واليهود :

وقد حاول الإنجليز أن يحصلوا من الملك حسين أو من ابنه الملك فيصل على موافقة ولو ضمنية على إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين فلم يظفروا إلا بمقابلات وخطابات تبادلها فيصل والدكتور ويزمان Weizmann زعيم الصهيونيين وكان أستاذاً للكيمياء فى جامعة منشستر وخدم الحلفاء فى الحرب ببحوثه وكشوفه فى عالم المفرقعات كما خدم أمريكا فى الحرب الأخيرة ببحوثه فى صنع المطاط الصناعى

وكانت تصريحات الأمير فيصل بشأن اليهود تنم عن روح التسامح التى طبع عليها الإسلام وتشيد بالروابط التاريخية التى تصل بين العرب واليهود منذ القدم.وقد أدى التفاهم بين الزعيمين العربى واليهودى فى أول الأمر إلى إنشاء مشروع اتفاق بلندن بتاريخ يناير سنة ١٩١٩ فى أثناء انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس . وكان من مواد هذا الاتفاق أن يشمل الدستور ونظام الإدارة الذى يوضع لفلسطين اتخاذ الاجراءات التى تكفل تنفيذ التصريح الذى أصدرته الحكومة البريطانية بتاريخ ٢ نوفمبر سنة

١٩١٧ (وهو تصريح بلفور) ومن مواده أيضاً أن تكون الأماكن الإسلامية المقدسة فى بيت المقدس تحت إشراف المسلمين .

وقد اشترط الأمير فيصل فى نهاية الاتفاق أنه إذا لم يجب العرب إلى مطالبهم فى الاستقلال داخل الحدود التى عينها العرب وقدمها الأمير إلى الحكومة البريطانية فإن هذا الاتفاق يعد باطلا ولا قيمة له . وأن كل إخلال أو تعديل فى هذه المطالب يقتضى سحب موافقته و إبراء ذمته ومسئوليته عن أى كلمة جاءت فى هذا الاتفاق .

وما كان الملك حسين وابنه فيصل ليرضيا عن فكرة إيواء اليهود فى فلسطين إلا مدفوعين بعامل الكرم والنخوة العربية من جهة وانتظاراً لتحقيق أمانى العرب التى وعدوا بها من جهة أخرى . وليس بنا من حاجة إلى بيان ان مؤتمر الحلفاء فى سان ريمو سنة ١٩٢٠ قد قرر توزيع الانتداب فى الشرق فجعل بريطانيا على العراق وفلسطين وخصت فرنسا بسوريا ولبنان .

بداية الانتداب :

وما كادت وثيقة الانتداب تمر فى مجلس العصبة فى سنة ١٩٢٢ حتى بدأ تنفيذها رسمياً فى سنة ١٩٢٣ وكانت انجلترا قبل ذلك قد سارعت إلى الغاء الإدارة العسكرية فى فلسطين

وتعيين هربرت صموئيل أحد الوزراء الإنجليز من اليهود مندوباً ساميًا فى فلسطين وقد بقى فى منصبه إلى عام ١٩٢٥ . وقد بدأ عمله بداية حسنة إذ استغنى عن كثير من الموظفين الإنجليز وعين بدلهم موظفين من العرب واليهود وأنشأ مجلساً استشارياً مكوناً من ١٠ بريطانيين و ٤ من المسلمين و ٣ من المسيحيين و ٣ آخرين من اليهود ثم حاول تحويل المجلس الاستشارى إلى مجلس تشريعى تتمثل فيه الطوائف المختلفة فيكون فيه عشرة أعضاء من البريطانيين واثنا عشر عضواً منتخباً منهم ٨ من المسلمين وعضوان مسيحيان وآخران يهوديان فذهبت محاولاته سدى وجعل الأعضاء العرب ينسحبون حتى لم يبق فى المجلس الاستشارى غير البريطانيين .

واقترح صموئيل على العرب إنشاء هيئة تمثلهم على نسق الهيئة الصهيونية فرفض العرب مستنكرين أن يعاملوا وهم أصحاب البلاد الحقيقيون على قدم المساواة باليهود اللاجئين إلى بلادهم .

وفى عهده تدفقت الأموال اليهودية من كافة أنحاء العالم لتهويد فلسطين بشراء الأراضى من الأهالى والإكثار من إنشاء المستعمرات الزراعية والمؤسسات الصناعية وأخذ اليهود امتياز توليد

الكهرباء واستخراج البوتاسيوم من البحر الميت وظاهر أن أرباح تلك العمليات كانت تعود إلى أصحاب الأسهم ومعظمهم من اليهود خارج البلاد .

وجاءت مع وفود الأموال وفود المهاجرين تترى من أوربا عامة ومن روسيا وبولنده خاصة وأخذت أعدادهم تتضاعف من ٧٫٤٠٠ فى سنة ١٩٢٣ إلى ١٢٫٨٠٠ مهاجر فى ١٩٢٤ إلى ٣٣٫٨٠٠ فى ١٩٢٥ وعلى ذلك بدأت مشكلة المهاجرين اليهود وهى أعقد مشكلات المسألة الفلسطينية ومن أهم أسباب الخلاف الحالى بين الصهيونيين والحكومة الانجليزية .

ولقد احتاطت الحكومة الانجليزية فى صياغة وثيقة الانتداب فأحاطت مسألة المهاجرين والتشجيع عليها بتحفظات صريحة، ولكنها تحفظات لفظية لم تحل دون تدفق المهاجرين بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة إلى داخل البلاد .

وكانت حركة الهجرة كلما ازدادت نشاطاً اشتد حنق العرب ولاحت أمامهم صور المستقبل مخيفة مفزعة حين تطغى كثرة اليهود فتنتزع أراضيهم من أيديهم وتتحكم فى مصاير البلاد بحكم الأكثرية ولذلك لم يكن غريباً أن يقوم العرب بثوراتهم المتلاحقة ضد ذلك الطغيان المنظم المتواصل الذى لا يلين ولا يرحم .

وقد ذكرت احدى اللجان التى كانت تتألف عقب قيام الثورات لتعرف أسبابها أن السبب الأصيل لثورة العرب هو حنقهم على سياسة الحكومة بشأن قبول المهاجرين اليهود إلى بلادهم وأن الأرض القابلة للاستثمار فى البلاد لا تكفى آلاف المهاجرين الذين تقبلهم الحكومة سنوياً اللهم إلا إذا أجلى العرب عن البلاد!

وقررت لجنة أخرى أنه إذا زاد عدد المهاجرين إلى ٢٠٫٠٠٠ مهاجر سنوياً أصبح اليهود أصحاب الكثرة فى البلاد فى سنة ١٩٥٦ أما إذا اقتصر العدد على ١٠٫٠٠٠ سنوياً فإن الكثرة العربية ستبقى وعلى أثر ذلك اضطرت الحكومة إلى مراعاة القصد فى قبول المهاجرين فقررت فى سنة ١٩٢٨ تحديد عدد المهاجرين بخمسة الاف مهاجر سنوياً فاستقرت الأمور نوعاً ولم تعد الثورات إلا بعد أن اشتد الضغط النازى فى ألمانيا ووسط أوربا فعاد الخط البيانى للهجرة فصعد إلى درجة فاقت كل تقدير.

تشرشل وتصريح بلفور :

ولما شكا العرب فى أول سنى الانتداب إلى الحكومة الانجليزية من تدفق المهاجرين اليهود إلى بلادهم من غير ضابط وكان مستر تشرشل إذ ذاك وزيراً للمستعمرات ظن العرب أن الوزير الجرئ سيواجه الموقف بصراحته وشجاعته الأدبية المعهودة فيعمل

على إنصافهم وإنقاذهم من الكابوس الصهيونى ولكن تشرشل اكتفى باصدار تصريحه فى يونيه سنة ١٩٢٢ تفسيراً لتصريح بلفور الشهير ولم يزد فيه شيئاً على ما سبق ترديده من الألفاظ والأمانى الطيبة إذ قال : « يسألوننا عما نقصده من إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين فنقول : ليس الغرض منه فرض قومية يهودية على سكان فلسطين عامة وإنما يراد به إنهاض الجالية اليهودية المقيمة فى البلاد existing وذلك بمساعدة اليهود المقيمين فى أنحاء العالم حتى يصبح لهم مركز تهوى إليه أفئدة اليهود فيهتمون به من الناحيتين العنصرية والدينية ويعتزون به ولكى يتحقق لتلك الجالية ما تصبو إليه من نمو وتتيسر لها الفرص التى تمكنها من إظهار نشاطها وقدراتها يجب على اليهود أن يعرفوا أن وجود الوطن القومى فى فلسطين ينبىء عن حق لهم لا تسامح فيه not on sufferance

وأضاف تشرشل إلى بيانه ما يؤكد الصفة الدولية لتصريح بلفور فقال « لذلك كان من الضرورى أن ينال وجود الوطن القومى لليهود فى فلسطين ضمان الدول وأن يعترف به كحق قائم على صلات تاريخية خالدة » .

وقال تشرشل فى ختام بيانه : « هذا هو التأويل الذى تقره الحكومة لتصريحها فى سنة ١٩١٧ وعلى هذا الأساس يعتقد

وزير المستعمرات أن التصريح لا يحمل بين طياته ولا ينطوى على أشياء من شأنها إثارة خوف السكان العرب فى فلسطين أو خيبة أمل اليهود . ولتحقيق هذه السياسة يتعين على الجالية اليهودية فى فلسطين أن تزيد عددها بالهجرة على ألا يتوسع فى الهجرة حتى تزيد على قوة امتصاص البلاد للسكان الجدد وعلى ألا يكون المهاجرون حملا ثقيلا على أهل فلسطين بصفة عامة وألا يأخذ وا عملا كان بأيدى أية طائفة من أهل البلاد الحاليين » .

وإذا كان فى هذا التصريح ميزة فإنه إذ فسر تصريح بلفور لم يقرر فيه ما يدعيه اليهود من حق إنشاء دولة يهودية .

النظام الإدارى :

وقد بدأت الحكومة الإنجليزية أعمالها رسمياً كدولة منتدبة على فلسطين فى سبتمبر سنة ١٩٢٣ وأصبحت السلطة التنفيذية بيد المندوب السامى الذى يعينه ملك انجلترا ليمثله فى فلسطين وشرق الأردن معاً . ويعاون المندوب السامى مجلس استشارى مؤلف من كبار موظفى الحكومة البريطانية ولم يبق فيه أعضاء من العرب أو اليهود . ولما كانت الحكومة الإنجليزية تعلق أهمية كبيرة على مجريات الأمور فى فلسطين فان المندوب

السامى دائم الصلة بوزارة المستعمرات الإنجليزية يستمد منها الرأى والعون فى الشئون المهمة . وقد ترتب على كثرة تدخل الحكومة المركزية فى شئون فلسطين أن شلت أيدى كبار الموظفين المحليين وتعطل تصريف الأمور التى يتطلب إنجازها الحزم وسرعة البت. ويلاحظ فى اختيار المندوب السامى فى فلسطين إلى جانب أهليته لرياسة الهيئة التنفيذية أن يكون رجلا دبلوماسياً من من الطراز الأول فإن عليه قبل أن يصدر أمراً أو يقر قراراً أن يستطلع آراء زعماء اليهود والعرب ويتعرف ميولهم والا تعرضت قرارته للنقد والتجريح والتعطيل .

ويقوم السكرتير العام بمعاونة المندوب السامى ، فهو حلقة الاتصال بين مصالح الحكومة المختلفة ، وهو الذى يوجه الإدارة العامة فى البلاد ، ويتولى البريطانيون معظم الوظائف الكبرى فى الحكومة .

ويلى المندوب السامى فى الأهمية والمقام كبير القضاة ، وهو مستقل عن السلطة التنفيذية استقلالا تاماً ويساعده عدد من القضاة البريطانيين يرأسون المحاكم المركزية وعدد كبير من القضاة الفلسطينيين من عرب ويهود ، وإلى جانبه نائب عام يقوم بتحضير القوانين ويتولى قضايا الحكومة .

وتطبق المحاكم القانون العثمانى الذى كان سارياً فى البلاد قبل الانتداب إلى طائفة من الأوامر واللوائح التى يصدرها المندوب السامى . وفى المسائل التى لا تنص عليها مجموعة القوانين العثمانية يرجع إلى النصوص البريطانية ، ومعظم المواد الجنائية الآن مأخوذة عن الأصل البريطانى . أما قضايا الأحوال الشخصية فتحال إلى الجهات الدينية المختصة .

طائفتا اليهود :

ولليهود رياستان دينيتان تمثلان الطائفتين المتميزتين : وهما طائفة « السفردى » Sephardi المنتشرين فى الشرق من العراق إلى فلسطين وشمال أفريقية ، ويبلغ عدد أفراد هذه الطائفة عشر عدد اليهود فى العالم .

وتلقى هذه الفئة عنتاً كبيراً من جانب الصهيونيين لأنهم بحكم نشأتهم وصلاتهم القديمة بالعرب ينقمون ظاهراً أو باطناً على الأساليب الصهيونية والحركات الإرهابية التى أحرجت مركزهم بين أهل البلاد العربية التى يقيمون فيها ويتمتعون بجنسياتها ، وقد اغتنم كثير منهم بعض الفرص السانحة لإعلان تبرئهم من السياسة الصهيونية وتمسكهم بعلاقات المودة وحسن

الجيرة التى تربطهم بأهل البلاد التى عاشوا فيها قروناً طويلة مشاركين أهل البلاد فى كل ما يصيبهم من خير أو شر ، وكان اليهود فى العراق وفى مصر أول من أعلنوا مقتهم للأساليب الصهيونية الأخيرة .

أما الطائفة الثانية وهى طائفة « الاشكنازى » **Ashkenazi** ويبلغ عددها تسعة أعشار اليهود فى العالم وتتكلم فيما بينها اللغة الألمانية الأصل المعروفة باليدش **Yiddish** وتكتبها بالحروف العبرية وينتشر أعضاؤها فى شرق أوربا ووسطها ومن هذه العناصر الأوربية الجامحة تتكون العصبية الصهيونية الحاضرة .

إصلاحات اليهود :

وكأنما أراد اليهود أن يبرهنوا للعالم أجمع على أنهم جديرون بالموطن الجديد فجعلوا ينافسون الطبيعة ويسابقون الزمن فى منشآتهم وإصلاحاتهم وفى تعمير المدن التى شيدوها وأبدعوا تصميمها وفى الصناعات التى أقاموها والمستنقعات التى جففوها والزراعات التى أدخلوها والمدارس والمستشفيات التى أعدوها وجهزوها على أحدث الأنماط العلمية . وكانت الحكومة المنتدبة فى كل ذلك هى المرشدة والراعية والحامية وليس صحيحاً ما يقال

الآن من أن انجلترا قد فشلت فى انتدابها فإن سياستها قد مكنت للبذرة الصهيونية أن تنبت وتنمو وتثبت جذورها فى أرض البلاد وهى التى جعلت اللغة العبرية مع اللغتين العربية والانجليزية لغة رسمية وهى التى تركت لهم طريقة استغلال العرب واستخلاص أراضيهم منهم .

عزلة اليهود

بذلك اتسعت أعمال اليهود ونمت مصالحهم فى فلسطين ووجدوا تحت أجنحة الوكالة اليهودية والمجلس العام « فادلومى » Vaad Leumi الحماية والعطف وأسباب المعاونة ، فتكونت من الطوائف اليهودية المختلفة فى فلسطين وحدة متماسكة متينة العرى تكاد تتوافر لها جميع الشروط اللازمة لقيام حكومة مستقلة ما عدا الشرط الأساسى وهو السيادة الإقليمية . ولم تكن الهيئات اليهودية غافلة عن ضرورة تحقيق هذا الشرط فقد عملوا منذ الساعة الأولى على شراء الأراضى من أصحابها العرب وإغرائهم على ذلك بكل الطرق . وفيما عدا الأرض كان اليهود يتمتعون بهيئة تنفيذية وأخرى تشريعية فضلا عن استقلالهم الدينى والثقافى . ثم رخص لهم فى النهاية بهيئة بوليسية ما لبثت أن تحولت إلى قوة حربية خاصة . وبذلك صار اليهود مساوين لحكومة الانتداب

من وجوه كثيرة . وحين كان التعاون قائماً بين الفريقين لم يكن ثمة خطر من جراء هذه المساواة فلما انقطعت أسباب الثقة بين اليهود وحكومة الانتداب صارت هذه المساواة بين السلطتين نقمة عمت البلاد فقد بطل التعاون وامتنع فريق كبير من الجمهور عن مساعدة حفظة الأمن وتعثرت الحكومة فى اجرآتها وتعذر عليها تنفيذ القوانين وكفالة الاحترام لها . ولم يحس اليهود حين انقلبت عليهم الإدارة بفقد شيء ذى بال فقد أضاع تمرسهم بالاستقلال فى نواح كثيرة كل أثر لسلطة الحكومة القائمة بالأمر .

وكأنما كان هذا الاستقلال النوعى الذى نعم به اليهود فى فلسطين لأول مرة بعد قرون طويلة قضوها فى بلادهم الأصيلة رازحين تحت ألوان مختلفة من القيود والأغلال سبباً إلى تنبيه شهوة الانتقام فى نفوسهم من الغير فاجتنبوا العرب ولم يبذلوا أيه محاولة جدية لمشاركتهم أو التعاون معهم فى شيء ؛ على حين تنتظمهم جميعاً دولة واحدة وتحتويهم بيئة واحدة وتظلهم مصالح بلاد واحدة . ولكن عزلة اليهود التى نشأوا عليها منذ كانوا والتى عرفت عنهم فى معظم البلاد التى أووا إليها ظلت ملازمة لهم حتى بعد أن سمحت لهم الأقدار بمأوى قومى لهم فى فلسطين . فقد حرموا استخدام العرب فى الأراضى التى يشترونها منهم كما منعوا

اعادة انتقال الأراضى بالبيع إلى العرب وحظروا انتفاع العرب بأى جزء من الأموال الحركة الصهيونية. ولو استطاعوا حرمان العرب من الانتفاع بالمنافع العامة التى نشأت من جراء وجود اليهود ما تورعوا عن ذلك .

حتى الجامعة التى أنشأوها على مقربة من القدس وهى الجامعة الوحيدة فى البلاد قد آثروا أن يكون التعليم فيها باللغة العبرية وبذلك أغلقوا باب التعليم العالى فى وجه العرب جميعاً مسلمين ومسيحيين فاضطروا إلى تحمل نفقات التعليم خارج فلسطين فى مصر أو لبنان أو جامعات الغرب . وقد يسأل سائل : كيف سمحت حكومة الانتداب فى لائحة إنشاء الجامعة العبرية أن يقصر التعليم فيها على استعمال اللغة العبرية فى بلاد قررت الحكومة نفسها أن تكون اللغات الرسمية فيها هى العربية والانجليزية والعبرية ؟ ولكن من ذا يجيب ؟

ومع ذلك نرى اليهود كثيراً ما يوازنون بين أنفسهم وبين العرب مباهين بارتفاع مستواهم ممتنين على العرب بما يزعمون أنهم أسدوه لهم ولفلسطين من الفوائد وبما أنشأوه من لأعمال العامة. وقد تناسوا الفارق المالى العظيم الذى يميزهم على من عداهم كما تناسوا ماضيهم وسابق خبرتهم بالقياس إلى العرب . والموزانة لا تستقيم إلا إذا تساوى الطرفان فى جميع المقومات . ومن حق العرب حين يمتن عليهم

اليهود بما أقاموا من أعمال كبرى فى الزراعة والصناعة أن يشيروا إلى مآثر أخوانهم العرب فى البلاد العربية الأخرى التى لم يصبها الزمن بالهجرة اليهودية فان الرقى الاقتصادى العام الذى شمل بلاد الشرق العربى بعد الحرب العالمية الأولى وخاصة فى بلاد كمصر لا يقل ان لم يزد فى بعض النواحى عما يمتن به اليهود فى فلسطين ؛ وكل ما امتازت به فلسطين هو ارتفاع نسبة الأجور بها تبعاً لارتفاع أسعار الحاجيات . ولا ننسى أن اليهود فى فلسطين مهاجرون أجانب جاءوا إلى البلاد مزودين بثرواتهم الشخصية وبالمساعدات المالية والعينية التى تمنحهم إياها الوكالة اليهودية .

ومن سوء طالع العرب فى ذلك الوقت أنهم كانوا يعملون فرادى فلم تكن لهم هيآت داخلية منظمة تسهر على مصالحهم ولا حكومات عربية مستقلة ترعى شئونهم وتسند ظهورهم فكانوا مقطوعين عن إخوانهـم العرب فى البلاد الأخرى كما كانوا حيارى مأخوذين، مشـدوهين مما يجرى على مرأى ومسمع منهم ، فقد رأوا كيف هاجم الفرنسيون الملك فيصل وطاردوه هو وأتباعه حتى أجلوه عن سوريا ولم يرعوا فى ذلك ذمة ولا عهدا مما سبق أن أعاهدوا عليه. العرب مذ كان فيصل يقود جموعهم

لنصرة قضية الحلفاء فى الشرق ورأوا الانجليز يدخلون العراق ويحكمونه حكماً عسكرياً ورأوا مصر تثور وتكافح فى سبيل استقلالها والانجليز لا يزالون مسيطرين فيها . وأدهى من ذلك وأمر أن العرب لم يكن من ورائهم حكومات مستقلة تسندهم وتشد آزرهم اللهم إلا حكومة الحجاز وكانت فى غمرة من حروبها ومنازعاتها الداخلية بين الأسرتين المتزعمتين فى شبه الجزيرة : الأسرة الهاشمية والأسرة السعودية .

تفاقم الأحوال :

لذلك كله أسقط فى يد العرب الفلسطينيين ولم يسعهم إلا أن يتربصوا بعدوهم الدوائر مترقبين أن تحين الفرصة للانتقام من الذين خانوا مواثيقهم وأذلوهم فى ديارهم .

وجاءت الفرص على فترات متعاقبة فكلما قامت ثورة أو أو حركة وطنية فى إحدى البلاد العربية تشجع العرب فى فلسطين وقاموا يناوئون الاستعمار الصهيونى الذى أوشك أن يقضى على كثرتهم ويستحوذ على أملاكهم وديارهم فثاروا عند ما شبت ثورة العراق ضد الانجليز فى سنة ١٩٢٠ وحين شبت الثورة فى سوريا ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥ . واستمد العرب من المعاهدة

الانجليزية العراقية فى ١٩٣١ التى ضمنت للعراق استقلاله وقبوله فى عصبة الأمم على قدم المساواة مع سائر الدول المستقلة روحاً جديدة للكفاح والنضال .

ولكن هذه الجهود جميعها ذهبت هباء واستطاعت حكومة الانتداب بما لها من بأس وقوة أن تقمع الثورات العربية وتؤيد النظام فى البلاد وبدلا من أن تضعف الروح الصهيونية وتقف عند حد فى مطامعها اجتاحت البلاد على أثر ظهور الثورة النازية فى ألمانيا ووسط أوربا عواصف جديدة إذ نزحت إلى فلسطين آلاف مؤلفة من اليهود الذين اضطهدهم النازيون وأخرجوهم من ديارهم فجاءوا بأسرهم إلى أرض المعاد حاملين معهم ثرواتهم وكفاياتهم فدخل بعضهم عن طريق الهجرة المشروعة وانسل كثيرون إلى داخل البلاد خلسة وفى غفلة من القانون أو تغافل من القائمين على تنفيذه وبعد أن كان عدد المهاجرين سنوياً من اليهود يتراوح بين ٤٠٠٠ فى سنة ١٩٣١ و ٩٥٠٠ فى سنة ١٩٣٣ قفز عددهم فى ١٩٣٤ إلى ٤٦٫٠٠٠ مهاجر وفى عام ١٩٣٥ بلغ عددهم أكثر من ٦٠٫٠٠٠ مهاجر .

وترى فى الجدول الآتى عدد اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٣٧ من البلاد المختلفة والنسبة المئوية لكل دولة :

الدولة	عدد المهاجرين	النسبة المئوية
بولنده	١٣١٢٤٩	٤٢
ألمانيا	٣٥٣٤٦	١١
روسيا	٣٠٧١٨	١٠
رومانيا	١٥٥٢٨	٥

ويلى ذلك المهاجرون من لتوانيا واليمن والولايات المتحدة وجهات متفرقة . ويلاحظ أن معظم المهاجرين وفدوا من بولندة وأوربا الشرقية . أما يهود غرب أوربا المقيمون فى انجلترا وفرنسا وبلجيكا وأمريكا الخ . . . فقد اندمجوا فى الشعوب التى يقيمون بين ظهرانيها وتجنسوا بجنسياتها وليس مما ينفعهم أن يتزلوا عن المزايا التى يتمتعون بها فى تلك البلاد وكل ما يهمهم من الحركة الصهيونية أن يمدوها بأموالهم وبنفوذهم السياسى والأدبى .

وقد بلغت نسبة المهاجرين اليهود الذين يمتلكون ما قيمته ألف جنيه أو أكثر فى سنة ١٩٣٦ — ١٠٪ من عدد المهاجرين وفى سنة ١٩٣٧ — ١٢ ./. وفى سنة ١٩٣٨ — ١٤ ./. من مجموع عددهم

ولم يقتصر ذلك الخطر الذى دهم فلسطين منذ سنة ١٩٣٣ على الكثرة العددية فقد كان المهاجرون الجدد من نوع آخر

امتاز بثروته وكفاياته المهنية والعلمية والفنية فحبب إليه سكنى المدن وإقامة الصناعات الكبرى وبعد أن كانت نسبة اليهود الذين يلتحقون بالمستعمرات الزراعية لا تقل عن ٢٦٪ أصبحت فى سنة ١٩٣٥ لا تزيد على ١٥٪ .

ولم يقتصر الخطر على تفاقم مشكلة المهاجرين بل أن تحولا خطيراً قد طرأ على الحركة الصهيونية نفسها وجعلها حركة عالمية تشمل يهود العالم . كله وقد كان اليهود إلى وقت قريب منقسمين يؤيد بعضهم حركة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ويرى الآخرون أن إنشاء الوطن القومى أو الدولة اليهودية كما يريدها الصهيونيون سيعرض اليهود المتجنسين بالجنسيات الأجنبية فى البلاد المختلفة لأخطار مؤكدة إذ يجعلهم فى نظر مواطنيهم كأنهم أجانب مبعدون عن دولتهم وقد تعمد بعض الحكومات إلى تجريد اليهود فيها من جنسية البلاد التى ولدوا وعاشوا فيها وقد يؤدى ذلك كله إلى اضطهادات جديدة ضد اليهود . وكان معظم المعارضين لفكرة الدولة اليهودية من أهل بريطانيا والولايات المتحدة . فلما جاءت سنة ١٩٢٩ ورأى اليهود ما أصابته سياسة الوطن القومى فى فلسطين من النجاح الفكرى والاقتصادى حتى بلغ عدد اليهود فيها نحو ١٦٠٫٠٠٠ بعد أن كان عددهم لا يزيد

على ٨٥٫٠٠٠ فى سنة ١٩١٤ و ١٠٠٫٠٠٠ فى سنة ١٩١٩ انكسرت حدة الخلاف بين الفريقين وتقرر فى المؤتمرات الصهيونية أن يتناسى الفريقان ما بينهما من خلاف ويوحدا جهودهما وأن تكون لجانهم فى المستقبل من أعضاء متساويين من الفريقين وأن يعمل الجميع قلباً واحداً ويداً واحدة لتحقيق أغراض اليهود فى فلسطين . وبذلك استمدت الحركة الصهيونية العون والمال من أمريكا وهولندة وسائر بلاد العالم وأنشأوا لهم فى مختلف البلاد شعباً ووكالات علنية أو سرية على اختلاف موقف الحكومات إزاءهم . وأصبح للصهيونيين بفضل زعيمهم ويزمان وأنصاره قوة ونفوذ فى العالم يفوق قوة الدول والحكومات المستقلة ذات السيادة .

لذلك لم يكن غريباً أن يقوم العرب فى فلسطين بثورتهم الكبرى فى سنة ١٩٣٦ بعد أن أحسوا أن الصهيونيين يريدون أن يقتلعوا العرب من ديارهم أو أن يواصلوا هجرتهم المشروعة وغير المشروعة حتى يصلوا إلى الكثرة العددية فى البلاد وحينئذ لا يضيرهم أن تنال البلاد الاستقلال الذاتى أو الكامل ما دامت الكثرة إلى جانبهم أما قبل أن تتوفر لهم الكثرة فبعدا للاستقلال

الذاتى وسحقاً للمجالس أو الجمعيات التشريعية أو الاستشارية أو نحو ذلك مما اقترحته اللجان التى ألفتها الحكومة الانجليزية لبحث أسباب ثورات العرب وطوى إلى غير رجعة لمعارضة الصهيونيين .

الفصل الثالث

«الحكمة بعد وقوع المحظور»

ثورة سنة ١٩٣٦ :

فى سنة ١٩٣٥ – ١٩٣٦ اكفهر الجو الدولى العام على أثر هجوم إيطاليا على الحبشة وتحديها لبريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم وأيقن الجميع أن خرافة التأمين الجمعى التى جاء بها ميثاق العصبة لم تعد تكفى لتأمين الشعوب على حرياتها واستقلالها وأن الواجب الوطنى يقتضى الشعوب أن تعتمد على نفسها وتأخذ الأهبة للدفاع عن حرياتها فقامت تركيا تعلن عزمها على تحصين المضايق وتسليحها وقامت مصر قومة رجل واحد تطالب انجلترا فى جبهة وطنية متحدة أن تعقد معها معاهدة تصون استقلالها . ومن مصر امتدت الحركة إلى بلدان الشرق فقام العرب فى فلسطين متحدين يذودون عن حقوقهم وقد أحسن الزعماء قيادة الحركة فواصل العرب كفاحهم بعزم وقوة .

وكان من أروع مظاهر ثورتهم إضرابهم العام ستة أشهر وقيام عصابات من بينهم للكر والفر يقودها رؤساء مدربون شجعان قد اتخذوا قواعدهم فى مكامن الجبال والوهاد وظلوا يواصلون غزواتهم غير آبهين بجيوش العدو ودباباته وطائراته .

وكان من أثر هذه الثورة الكبرى أن تنبه الانجليز آخر الأمر إلى أن للعرب حقوقاً قد ديست وافتات عليها اليهود وما كان الإنجليز يجهلون ذلك يوماً ولكن تطورات السياسة العالمية بعد سنة ١٩٣٥ حين تحدت إيطاليا بريطانيا ومعها عصبة الأمم قد أجبرت الإنجليز على مواجهة الحقائق لا فى فلسطين فحسب بل فى تركيا والبلقان وفى مصر كذلك حيث سارعت بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦

بدء تحول السياسة الإنجليزية :

فقد اقتنع الانجليز أخيراً أن تحدى إيطاليا وألمانيا للعصبة وللمواثيق الدولية لا بد أن يؤدى آجلا أو عاجلا إلى الحرب وأن مبدأ التأمين الجمعى أو التعويل على ميثاق عصبة الأمم لم يعد واقياً منها أو مانعاً لها مهما تبدلت الأحوال فأخذت انجلترا تقرر الاعتمادات المالية الكبرى لتقوية أسلحة الحرب المختلفة

ورأت أن تدعم مركزها فى شرق البحر المتوسط خاصة تاركة الجزء الغربى منه لفرنسا ولها قواعدها الحصينة على سواحل أفريقية الشمالية . وقدرت بريطانيا فى سياستها أن صداقة العرب فى الشرق ستكون خير درع لها تتقى به هجمات الفاشية والنازية فى تلك الأرجاء ، وإذا كانت انجلترا قد فرضت عليها الضرورات فى الحرب العالمية الأولى أن تتحبب إلى العرب وتسعى إلى مرضاتهم وحدها ودون علم من حلفائها لتستميلهم إلى جانب الحلفاء ولم يكن للعرب إذ ذاك دول ولا جيوش ولا سلطان فكيف بها الآن وقد أضحى للعرب دول وبأس وجيوش قوية وصار لبعضهم كمصر والعراق منتجات وإمدادات من البترول لا تنضب بعضها يصل إلى السويس وأهمها متصل بأنابيب ممتدة من آبار كركوك والموصل بالعراق إلى حيفا وطرابلس ويحرسها العرب فى العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين .

لجنة بيل وتقسيم فلسطين :

لذلك بدأت الحكومة الانجليزية تنظر إلى المستقبل بعين الحذر واليقظة وتخشى أن تفاجئها الحرب فتواجه ثورة دامية على أبواب الشرق الأوسط فسارعت فى سنة ١٩٣٦ بتأليف لجنة لورد بيل Peel لبحث الحالة فى فلسطين والتقدم بمقترحاتها .

ولما وصلت اللجنة فى نوفمبر من تلك السنة قاطعها العرب قائلين إن اللجان السابقة التى ألفتها الحكومة قد انتهت إلى قرارات لو أن الحكومة نفذتها لأمكن علاج الحالة ولكن النفوذ الصهيونى حال دون الأخذ بتلك القرارات . واذن فلا فائدة ترجى من التعاون مع لجنة جديدة . وقد استمرت مقاطعة العرب للجنة حتى قرب موعد رحيلها وعندئذ لم يجد العرب بدأ من مقابلة اللجنة بعد أن أقنعهم أنصارهم فى البلاد العربية بضرورة ذلك .

وقد اضطلعت اللجنة بمهمتها بهمة وكفاية جديرتين بالتنويه ولكنها مع الأسف أخطأت فى قراراتها النهائية إذ جعلت للصهيونيين حقاً مساوياً للعرب فحولت الوطن القومى لليهود إلى دولة سياسية لها كيانها الخاص وقسمت البلاد التى لا تزيد مساحتها على ١٠٤٢٩ ميلا مربعا والتى يبلغ عدد سكانها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ نفس إلى ثلاثة أقسام :

القسم الساحلى ومن خلفه السهول الخصبة وقد جعلته لليهود وتركت فيه أقلية عربية تكاد تتساوى فى عددها مع اليهود وبه ميناء حيفا الشهير وعكا .

وخصصت للعرب الجزء الداخلى على أن ينضم إلى شرق الأردن ويكون معها دولة واحدة تفصل الدولة اليهودية المقترحة بينها وبين

سوريا ولبنان كما تفصل تلك الدولة بينها وبين ساحل البحر اللهم إلا ممر ضيقا يؤدى إلى يافا .

وأبقت الأماكن المقدسة فى القدس وبيت لحم والناصرة تحت حكم الدولة المنتدبة مباشرة على أن ترتبط الدولتان العربية واليهودية اللتان اقترحتهما اللجنة مع الحكومة الانجليزية بمعاهدتين منفصلتين تضطلع فيهما انجلترا بمهمة الانتداب .

وقد ذكرت اللجنة فى تقريرها أن سبب ثورة العرب هو رغبتهم فى تحقيق أمانيهم بالاستقلال أسوة بباقى الشعوب العربية التى تمتعت باستقلالها أخيراً ولم يكن عرب فلسطين أقل استعداداً أو استحقاقاً للحرية والاستقلال من إخوانهم فى بلاد العرب العراق وشرق الأردن . وقالت إن العرب يأخذون على حكومة الانتداب تحيزها للصهيونية وأنها أغفلت ما نصت عليه وثيقة الانتداب فى المادة الثالثة من التشجيع على إقامة الحكم الذاتى فى البلاد فلم تخط خطوة واحدة فى ذلك السبيل خشية إغضاب الصهيونيين الذين لا يريدون أن يظلوا أقلية فى البلاد . وبينما تغفل بريطانيا تنفيذ البنود التى تخدم مصالح فلسطين والعرب تعنى بتنفيذ ما أصر اليهود على النص عليه فى وثيقة الانتداب وتبذل غاية جهدها فى إرضائهم كما تفعل فى تيسير الهجرة وشراء

الأراضى من العرب واستغلال المرافق العامة للبلاد والتدخل بطرق شتى فى شئون الحكومة .

لذلك طالب العرب بوقف هجرة اليهود وإقامة الحكم النيانى فى البلاد فوراً وقالت اللجنة إن فى إجابة طلبات العرب إخلالا بما جاء فى وثيقة الانتداب خاصاً بالوطن القومى لليهود وفى رفض طلباتهم تعريض العرب للغزو اليهودى البطئ . لذلك رأت اللجنة أن تخرج من تلك الورطة باقتراح التقسيم الذى ذكرناه .

وما كادت محتويات التقرير تذاع حتى استنكر العرب على اختلاف أحزابهم تقسيم بلادهم ورفضوا قبوله بتاتا . أما اليهود فقد لقى التقرير من بينهم فئة تحبذ قبول مقترحاته وقد قر مؤتمرهم الذى اجتمع فى زيوريخ بسويسرا فى أغسطس سنة ١٩٣٨ تأييد الرئيس ويزمان فى اقتراحه أن يواصل اليهود مفاوضاتهم بشأن التقسيم مع رجال الحكومة البريطانية بقصد الوقوف على التفصيلات المقترحة لأنشاء الدولة اليهودية .

وهذا الموقف المتباين بين العرب واليهود بشأن تقسيم فلسطين يذكرنا بالقصة المعروفة عن المرأتين اللتين احتكمتا إلى سليمان الحكيم بشأن بنوة طفل كانتا تتنازعانه فلما استمع سليمان إلى حكاية المرأتين رأى بحكمته أن خير وسيلة للتعرف على أم الطفل

الحقيقية أن يأمر بقسمة الطفل قسمين لكل منهما نصف فقبلت إحدى المرأتين القسمة وأما الأم التى خافت أن تثكل ابنها فصرخت فى وجه الملك وآثرت النزول عن حقها إبقاء على حياة ابنها .

وكانت الحكومة الانجليزية فى أول الأمر تؤيد فكرة التقسيم فلما عرض التقرير على مجلس العموم قرر المجلس عرض الاقتراح على لجنة الانتدابات بعصبة الأمم وقد أقرت هذه اللجنة المشروع مبدئياً مؤيدة بقاء الانتداب على الدولتين وإرجاء استقلالها مؤقتاً وطلبت إلى الحكومة الانجليزية عرض البيانات اللازمة لتنفيذ فكرة التقسيم . فألفت الحكومة لجنة فنية برياسة وودهد Woodhead لدراسة مشروع التقسيم .

وفى أثناء ذلك تجددت الاضطرابات فى فلسطين واستأنف العرب ثورتهم أشد مما كانت عليه قبل ظهور تقرير اللجنة وقد استمدوا من بعض فقراته مبررات لكفاحهم وعنفهم فتمادوا فى حركتهم حتى بلغ عدد من قتل من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ : ١٧٩١ وعدد الجرحى ٣٢٨٨ وفقد العرب نحو ألفى نفس وحدث أن هوجم نائب الحاكم الانجليزى لأحد الأقسام فى الناصرة وقتل أمام الكنيسة الانجليزية فلم تطق الحكومة صبراً

على ذلك وأصدرت فى أكتوبر سنة ١٩٣٨ قراراً بحل اللجنة العربية العليا وإلغاء وظيفة المفتى زعيم العرب فى فلسطين والقبض على بعض زعماء العرب : فتمكن الزعيم الفلسطينى وآخرون من الفرار إلى لبنان ومنه إلى العراق فكان يباشر من منفاه سير القضية خطوة خطوة أما الزعماء الآخرون فقد نفوا إلى سيشل بالمحيط الهندى ثم نقل بعضهم إلى روديسيا بجنوب أفريقية فى أثناء الحرب الأخيرة ولم يفرج عنهم إلا بعد نهاية الحرب .

وكانت لجنة وودهد قد فرغت من عملها فظهر لها من الصعاب فى طريقة تنفيذ اقتراح القسمة ما حملها وحمل الحكومة على أن تعدل عن فكرة التقسيم .

وقد أعادت الحكومة الانجليزية بعد الحرب بحث فكرة التقسيم مرة أخرى ، ولكن العرب أصروا على رفض التقسيم كيفما كان، واثقين أن اليهود لن يقفوا عند الحدود التى توضع لهم ، وأن دولة تحكمها هيئة عالمية و وطنية فى وقت واحد كالهيئة الصهيونية لا بد أن تتسع وتنمو مع الزمن ومع توالى الهجرة وتدفق رؤوس الأموال من يهود العالم بأجمعه فتصبح مصدر خطر لا على الدولة العربية الشريكة فحسب بل على الدول العربية وغير العربية المتاخمة جميعاً وحينئذ لا يقتصر خطر

الدولة الصهيونية على الناحية الحربية بل يشمل النواحى الاقتصادية والثقافية الأيديولوجية. ولا ننسى أن نحو نصف يهود العالم روسيون أو بولنديون مولداً وأن الزعيم اليهودى الشهير ويزمان ولد وترعرع فى روسيا وأن لروسيا كما لغيرها مطامع تصبو إلى تحقيقها فى الشرق الأوسط فإذا ما قامت دولة اليهود فى الشرق الأوسط وقفت كقاصمة الظهر وسط بنيان الدول العربية ولا يلبث الروس أو غيرهم من الدول الكبرى أن يتخذوا منها رأساً للرمح الذى يفتحون به الميدان الجديد .

مؤتمر المائدة المستديرة :

وكانت الأزمة السياسية الإوربية قد بلغت منتهاها فى سنة ١٩٣٩ وباتت الحرب على الأبواب فقررت الحكومة الانجليزية أن تنظم موتمراً فى لندن يدعى إليه كل من العرب واليهود على انفراد ومتى وصل الفريقان إلى حل ترتضيه الحكومة الإنجليزية ويرتضونه جميعاً اجتمعت العناصر الثلاثة فى مؤتمر واحد للاتفاق النهائى . وقد قررت الحكومة الانجليزية أن تدعو إلى هذا المؤتمر الدول العربية المستقلة حينذاك فكان هذا أول اعتراف دولى بقوة الجامعة العربية التى لاحت فى الأفق السياسى الدولى قبل أن تبرز إلى الميدان حقيقة ماثلة فبدأت انجلترا وسائر الدول تعمل

حسابها وكان اشتراك الحكومات العربية فى المؤتمر أول اختبار دولى ظهرت فيه قوة الدول العربية مجتمعة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان جهاد عرب فلسطين واستبسالهم فى الدفاع عن بلادهم أول حافز لاجتماع الشعوب العربية والإسلامية فى مؤتمرات عامة غير حكومية انعقدت فى فترات مختلفة فى القدس والقاهرة وبلودان وكانت هذه المؤتمرات هى البشير الشعبى الأول لحركة جامعة الدول العربية

وقد لبى الدعوة إلى المؤتمر ممثلو الدول العربية مصر والعراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن واليمن . أما عرب فلسطين فكانوا فى وضع شاذ إذ كان زعماؤهم منفيين مشردين خارج بلادهم فعارض العرب فى حضور المؤتمر ما لم يمثلهم فيه رئيسهم الزعيم الفلسطينى السيد أمين الحسينى ثم ارتضوا أخيراً ارسال اثنين من زعمائهم وقد استجابت الحكومة الانجليزية إلى بعض طلباتهم فأفرجت عن المنفيين فى سيشل وتركت لهم حرية الإقامة خارج فلسطين .

واجتمع المؤتمر فى يناير سنة ١٩٣٩ وظل إلى مارس وكان من أهم أعماله تأليف لجنة فرعية لبحث الوثائق والحجج التى استند إليها العرب فى تأييد حقهم فى الاستقلال ومنها الخطابات

التى تبودلت بين الملك حسين والسير هنرى ما كماهون فى سنة ١٩١٥ بشأن ضمان استقلال العرب .

قرارات الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ :

وأما ما عدا ذلك من شئون فلسطين فإن المؤتمرين سواء من العرب أو من اليهود لم ينتهوا فيها إلى قرارات حاسمة . وكان الجو الدولى قد أخذ يتلبد بالغيوم فسارعت انجلترا إلى فض المؤتمر وأرادت أن تضع الفريقين أمام الأمر الواقع قبل نشوب الحرب فأصدرت فى ١٧ مايوسية ١٩٣٩ كتاباً أبيض نال موافقة البرلمان الانجليزى وفيه قرر وزير المستعمرات حل المشكلة على الأسس الآتية : أعلنت الحكومة الانجليزية صراحة أنه ليس من خطتها السياسية تكوين دولة يهودية فى فلسطين كما نفت الدعوى التى استمدها العرب من خطاب ما كماهون والتى تقول بضم فلسطين إلى الدولة العربية . وصرحت أن الهدف الذى تعمل له بريطانيا هو تكوين حكومة مستقلة لفلسطين من الجنسين العربى واليهودى بحيث تؤمن فى هذه الحكومة مصالح الفريقين . ويكون إنشاء هذه الحكومة المستقلة فى مدى عشر سنين وعلى أساس معاهدة تعقد مع بريطانيا وتصان بها مصالح البلدين من الوجهتين الاستراتيجية والتجارية . ولتحقيق هذا

الغرض ستعمل الحكومة على أن يضطلع الوطنيون الفلسطينيون بنصيب أكبر من المسئولية . ومتى استقر النظام والأمن فى البلاد عهد إلى أهل فلسطين بإدارة مصالح الحكومة بارشاد مستشارين من الانجليز وتحت رقابة المندوب السامى ومن هذه النواة يتألف فى المستقبل مجلس للوزراء . وبعد خمس سنوات من استقرار الأمن فى البلاد تجتمع لجنة تمثل مندوبى الشعب الفلسطينى وحكومة جلالة الملك لوضع الدستور اللازم البلاد . فإذا حدث ما يضطر الحكومة إلى تأجيل إنشاء حكومة مستقلة للبلاد تشاورت بريطانيا مع مندوبى الشعب الفلسطينى ومجلس عصبة الأمم والدول العربية قبل تنفيذ قرار التأجيل .

هذا ما قرره الكتاب الأبيض بشأن استقلال البلاد . وأول ما يلاحظ فيه أن الحكومة الانجليزية قد لجأت إلى حل يعتبر جديداً فى سياستها مع أملاكها ومستعمراتها وهو أنها قيدت خطتها بوقت حددته بعشر سنين للاستقلال وبخمس سنين لوضع الدستور . وهى سياسة لجأت إليها الحكومة الانجليزية فى السنين الأخيرة مدفوعة بعامل الحذر والترقب من جهة وعامل الشك والريبة فى مستقبل الحالة الدولية من جهة أخرى . وقد يكون الوازع هو الرغبة فى توريط الفئات المتنازعة وحملها على الاتفاق قبل أن يحل التاريخ المحدد والبلاد غير مستعدة لاستقبال

الوضع الجديد . وقد حددت انجلترا للهند موعداً لنقل السلطة إلى أيدى الهنود غايته يونيه سنة ١٩٤٨ ثم عدلته الى ١٥ اغسطس سنة ١٩٤٧ كما أرادت عند ما كانت تفاوض حكومة مصر بشأن المعاهدة أن تحدد آخر موعد لجلاء جنودها عن منطقة القناة فى سنة ١٩٤٩ ومهما يكن من أمر فإن الدول العربية لم ترض عن شرط السنين العشر لان هذه المدة تتيح لليهود أن يزيدوا عدد مهاجريهم إلى فلسطين سراً أوعلانية و بذلك يزداد تمثيلهم متى قام النظام النيابى فى البلاد، وكذلك اعترض العرب أشد اعتراض على التحفظ الذى ذكر فى آخر الفقرة الخاصة بالاستقلال وهو أنه إذا جد فى الأمر ما يدعو الحكومة إلى تأخير إعلان استقلال البلاد فإنها تعد بأن ترجع فى ذلك إلى مجلس العصبة وإلى الحكومات العربية . وكان بقاء هذا التحفظ من أهم أسباب توقف العرب عن إقرار سياسة الكتاب الأبيض .

وقد عرض الكتاب الأبيض لمسألة هجرة اليهود إلى فلسطين وهى فى الصميم من شكوى العرب لأن فلسطين تكاد تكون البلاد الوحيده التى اختارها اليهود المضطهدون فى أوربا لاقامتهم دون بلاد العالم طرا . ونسى الصهيونيون الذين يشجعون اليهود على ذلك والدول التى تعاونهم عليه أن فلسطين محدودة جغرافياً بحدودها المعروفة وزراعياً بالأراضى الصالحة للزراعة فيها وهى لا تزيد

على سدس مساحة فلسطين كلها . وقد سبق للجان الانجليزية التى ألفتها الحكومة لبحث هذا الموضوع أن أكدت أنه ما لم تستصلح الأرض فإنه ليس لدى الفلسطينيين أرض ولا تملك الحكومة أرضاً تبرر قبول مهاجرين إلى البلاد وأن الأرض القابلة للزراعة إذا وزعت على أهل فلسطين فلن يصيب كل أسرة ما يكفى لمعيشتها . وزيادة على ذلك فإن الأرض التى زعم اليهود أنهم سيصلحونها والمشروعات التى اقترحوها لذلك قد أثبت الخبراء عند فحصها عدم صلاح معظمها .

ومع كل ذلك لا يريد اليهود أن يقفوا عند حد فى موضوع الهجرة . ولا يريدون أن يفكروا فى التحول إلى أرض أخرى خارج فلسطين كالأرض التى عرضت عليهم فى شرق أفريقية أو فى أمريكا الجنوبية لتكون موئلا للمشردين والمضطهدين منهم كأنما قدر على فلسطين —ولم يكن سكانها ليزيدوا على ٧٥٠٫٠٠٠ قبل الحرب العالمية الأولى — أن يعولوا يهود العالم كله ويبلغون الآن ١٥ مليوناً . ولم يكف اليهود أن سكان فلسطين قد زادوا إلى نحو ١٫٨٠٠٫٠٠٠ فى الثلاثين سنة الأخيرة وقد حاولت الحكومة الانجليزية عبثاً فى الماضى أن تقيد الهجره بقوة الامتصاص فى البلاد أو باشتراط دخل معين للمهاجر فلم يغن ذلك شيئاً إذ كان أمر قبول المهاجرين من اختصاص الهيئة الصهيونية فاستطاع

المهاجرون أن يفلتوا من رقابة الحكومة وقيودها ويدخلوا فلسطين بوسائل مختلفة .

وأخيراً لم تجد الحكومة الانجليزية مناصاً من الاعتراف بالخطر المحدق بالبلاد من جراء فتح باب الهجرة على مصراعيه فقرر الكتاب الأبيض أن يسمح بدخول ٧٥٠٠٠ مهاجر يهودى بمعدل ١٠٫٠٠٠ كل عام فى مدى خمس سنوات . ويضاف إليهم ٢٥٠٠٠ مهاجر هو نصيب فلسطين فى إيواء الذين وقع عليهم اضطهاد الحكومة النازية فى السنين الأخيرة . ونص الكتاب الأبيض على ألا يسمح بعد ذلك بقبول مهاجرين آخرين إلا بموافقة العرب . وكانت الفكرة التى حدت بالحكومة الانجليزية إلى فتح باب الهجرة مدة السنوات الخمس المقترحة هى أن يصل عدد اليهود فى النهاية إلى ثلث عدد سكان البلاد .

مسألة زيادة السكان :

وجدير بنا ونحن نبحث قوة امتصاص البلاد للمهاجرين أن نقف على تطور مسألة السكان فى فلسطين . فقد زاد عدد السكان من ٧٥٠٫٠٠٠ بحسب تعداد سنة ١٩٢٢ إلى ١٫٧٦٥٫٠٠٠ فى نهاية سنة ١٩٤٤. وبلغت زيادة عدد اليهود فى هذه الفترة من ٨٤٫٠٠٠ إلى ٥٥٤٫٠٠٠ أى من ١٣ ٪

إلى ٣١.٠/. من مجموع السكان . ونسبة المهاجرين من هذه الزيادة لا تقل عن ٧٥./. أما العرب المسلمون فقد زاد عددهم فى هذه الفترة من ٥٨٩,٠٠٠ إلى ١,٠٦١,٠٠٠ يضاف إليهم عدد العرب المسيحيين الذين زادوا من ٧١,٥٠٠ إلى ١٣٦,٠٠٠ فبلغ بذلك عدد العرب ١,١٩٧,٠٠٠ ومن هذا يتضح أن نسبة زيادة العناصر غير اليهودية لم تتعد ٥٥./. من عددها فى سنة ١٩٢٢ أما زيادة اليهود بالقياس إلى عددهم فى سنة ١٩٢٢ فتبلغ نحو ٤٧٧./. .

على أن الزيادة فى عدد العرب لم تنشأ عن الهجرة كزيادة اليهود ولكنها نتيجة للزيادة الطبيعية فى النسل ولاطراد تحسن الحالة الصحية بين العرب ووقف حركة تجنيد العرب فى الجيش التركى . وفرض القيود على هجرة الأسيويين فى بعض جمهوريات أمريكا . فاذا أسقطنا حساب الهجرة اليهودية إلى فلسطين أخذت زيادة عدد اليهود الطبيعية فى التضاول كما يتضح من نسب الزيادة الطبيعية الآتية فى كل ألف :

السنة	المسلمون	المسيحيون	اليهود
١٩٢٢—١٩٢٥	٢٣,٢٧	٢٠,١٦	٢٠,٤٤
١٩٢٦—١٩٣٠	٢٥,١٩	٢٠,٦٠	٢٢,٧٠
١٩٣١—١٩٣٥	٢٤,٩٧	٢٠,٨٥	٢٠,٩١

١٩٣٦–١٩٤٠	٢٧٫٦٨	٢٠٫٧٧	١٧٫٧٥
١٩٤٠–١٩٤٤	٣٠٫٧١	١٨٫٨٩	١٧٫٨٣

فإذا عرفنا أن مساحة فلسطين تبلغ ١٠٫٤٢٩ ميلا مربعاً فتكون نسبة كثافة السكان نحو ١٧٩ لكل ميل وتصبح نحو ٣٣٦ لكل ميل إذا استبعدنا الأرض الصحراوية الجنوبية .

ثم عالج الكتاب الأبيض مسألة الأرض وهى تلى فى الأهمية مسألة الهجرة . وقد نصت وثيقة الانتداب فى المادة السادسة على أن تعمل الحكومة بالاشتراك مع الوكالة اليهودية على تشجيع اليهود على الاقامة بالأرض بما فى ذلك أراضى الحكومة والأراضى البور التى لا تحتاج إليها الحكومة للمنافع العامة . لذلك رأت حكومة الانتداب من واجبها تسهيل عملية نقل ملكية الأراضى لليهود فعملت على إلغاء نظام الأراضى الشائعة بالملكية فى القرى وصرحت بتجزئتها ونقل ملكيتها وأعدت من القوانين ما ينظم حصر الأراضى وتحديدها وتسجيل بيعها .

ومع أن المادة التى نصت عليها وثيقة الانتداب قد اشترطت عدم الاضرار بمصالح الأهالى فان الحكومة لم تستطع أن تدقق – أولم ترد أن تدقق – فى عمليات نقل ملكية الأراضى من الفلاحين العرب إلى اليهود . ولما كان اليهود يعرضون على الفلاحين أثماناً مغرية لأراضيهم فإن عدداً كبيراً منهم قد انساقوا لبيع أراضيهم

وخاصة فى أول عهد الانتداب قبل أن يستفحل خطر الصهيونية وكان جزء من الأراضى الزراعية تابعاً فى العهد التركى لولاية بيروت فلما ضم هذا الجزء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى اضطر أصحابه المقيمون فى بيروت وغيرها أن يبيعوه لليهود .

وكان امتلاك الأرض فى فلسطين من أهم الدعائم التى أراد الصهيونيون أن يقيموا عليها حقوقهم المستقبلة ظناً منهم بأن العرب إذا فقدوا أراضيهم فإنهم لا بد نازحون إلى جهات أخرى .

وقد بلغ ما اشتراه اليهود من الأراضى الزراعية فى سنة ١٩٢٥ ما مقداره ١٢٥٫٠٠٠ فدان ولم يكن بأيديهم قبل الحرب أكثر من نصف هذه المساحة وفى سنة ١٩٣٩ بلغت مساحة هذه الأراضى ما يساوى ٣٢٥٫٠٠٠ فدان .

ووجه الخطر فى ذلك أن الأرض التى اشتراها اليهود إنما اشتريت بمال الوكالة اليهودية وهى هيئة عالمية فكأنما انتقلت ملكية الأرض إلى خارج البلاد ، وأشد من ذلك خطراً أنه قد حرم استخدام العرب فى فلح هذه الأرض أو نقل ملكيتها إلى أحد سوى اليهود . فكأن هذه الأرض قد نزعت ملكيتها فى فلسطين وانتزعت مع ملكيتها فائدتها لأهل فلسطين .

وقد ضج العرب بالشكوى من هذه الحال وطالبوا بأن تصان

أرض الفلاحين العرب فكانت الحكومة تشترط ألا يسجل بيع الأراضى إلا إذا بقى للبائع من ملكه ما يكفيه لمعاشه ومعاش أسرته . أو كانت تعوض البائعين بتوزيع بعض الأراضى التى تملكها الحكومة بشروط مناسبة .

وأخيراً سنحت الفرصة للحكومة فى ١٩٤٠ بإصدار قانون يضع حداً لعملية بيع الأراضى لليهود فحرمت بيع الأراضى لليهود فى المناطق القريبة من الجبال والتى يزدحم فيها السكان ولا سبيل إلى إصلاح أراضيها إلا بمشروعات تستلزم نفقات طائلة . وحددت مناطق أخرى يجوز فيها البيع بإشراف الحكومة إذا كان البيع لفائدة الفريقين. ومناطق ثالثة يجوز فيها البيع وهى المناطق الصناعية والأراضى التابعة للبلديات .

وقد أثار هذا القانون ضجة عند مناقشته فى مجلس النواب الانجليزى وهو يضم فى مختلف العهود عدداً كبيراً من اليهود فاتهموا الحكومة أنها بذلك القانون قد خالفت نصوص وثيقة الانتداب ؛ فكان رد وزير المستعمرات حينذاك أنه إذا كانت الوكالة الصهيونية قد راعتْ مصالح اليهود فقررت عدم نقل الأرض التى يشتريها اليهود إلى العرب فإن من حق العرب أن يطلبوا من الحكومة أن تحميهم بإصدار مثل هذا القانون وإذا كانت وثيقة الانتداب قد نصت على إقامة اليهود فى الأرض

فإنها قد اشترطت أيضاً عدم الاضرار بمصالح الآخرين .

وقد استقبل العرب هذا الكتاب الأبيض بكثير من التوجس يتردد بين السخط والرضاء . أما اليهود فقد رفضوه رفضاً باتاً لأنه عاد بهم إلى نظرية الوطن القومى فى فلسطين ونبذ الفكرة التى نبتت وأورقت فى أذهان اليهود منذ الانتداب ـ فكرة انشاء الدولة اليهودية فى فلسطين

وقد ظهر سخط اليهود على سياسة الكتاب الأبيض فى القرار الذى اتخذته لجنة الانتدابات فى عصبة الأمم فقد رفضته بسبعة أصوات ضد أربعة . ولكن الحكومة الانجليزية لم تلق بالا إلى هذا الرفض وسارت فى سياستها وفق الكتاب الأبيض .

ويعتبر ظهور الكتاب الأبيض بالنسبة لليهود خاتمة لمرحلة التعاون مع دولة الانتداب ومبدأ لمرحلة العداء المستحكم ضد الانجليز . وقد أدركت الوكالة الصهيونية وشعبها فى العالم مبلغ ما ينتظرها من الكفاح فى سبيل نقض قرارات الكتاب الأبيض فجعلت تستعد لذلك استعداداً محكم الحلقات . وأول ما لجأت إليه الاحتيال على تفادى تطبيق قانون نقل الأراضى لسنة ١٩٤٠ فكان اليهود يلجأون إلى وضع أيديهم

على الأراضى التى يتفقون على شرائها دون الدخول فى إجراءات البيع اعتماداً على أنه إذا انقضت المدة المقررة فى القانون لحق واضع اليد فى التملك وهى عشر سنوات أصبحت الأرض ملكاً لهم . أما الخطط التى رسموها لنقل المهاجرين سراً فقد ظهر بعد الحرب أنها خطط دولية محكمة اتفق عليها الصهيونيون فى البلاد المختلفة لتيسير نقل اليهود أو تهريبهم إلى فلسطين دون أى اكتراث بالدولة المنتدبة أو بمصالح أهل البلاد وسكانها أو بالقوانين المرعية فيها .

الفصل الرابع

«الحل الأخير»

أثر نشوب الحرب الأخيرة :

لم تمض بضعة أسابيع على ظهور الكتاب الأبيض فى مايو سنة ١٩٣٩ حتى اندلعت نيران الحرب الأخيرة وأصبحت حاجة انجلترا إلى معاونة الفريقين شديدة ، فعمدت إلى ترضية اليهود بإغفال ما أغضبهم من قرارات الكتاب الأبيض واستغلت مصانعهم وعمالهم الفنيين فى الانتاج للحرب وتطوع منهم آلاف فى صفوف القوات المحاربة حتى وصل عددهم إلى نحو ستة وعشرين ألفاً يعملون فى مختلف الوحدات .

وأوقف العرب نشاطهم الثورى كذلك وانضم عدد منهم إلى صفوف الحلفاء ولكنهم لم يبلغوا نسبة اليهود فلم يزد عددهم على اثنى عشر ألفاً .

وليس لانجلترا أن تقارن بين نصيب العرب ونصيب

اليهود في الحرب العالمية الثانية فحسب العرب أنهم أخلدوا إلى السكون وعاونوا في الحرب ضد قوات حكومة فيشي في سوريا ولبنان وساعدوا على احباط مساعي المحور فلم يخفوا لمعاونة الثوار في العراق وإحراج مركز الحلفاء في الشرق الأوسط .

أما اليهود فقد كان لهم قبل الحرب قوات مدربة للقتال أو لحفظ النظام في فلسطين فلما أعلنت الحرب انضمت هذه القوات إلى صفوف الحلفاء . ويا ليتهم ما انضموا إلى الحلفاء ولا عاونوهم فقد اتخذوا من انضمامهم ستاراً أخفوا وراءه نيات إجرامية مبيتة واهتبلوها فرصة للتمرن على استعمال الأسلحة المختلفة وادخروا من السلاح والذخيرة الحربية كميات هائلة ظهر أثرها في أعقاب الحرب ، حتى الأغذية وغيرها من أنواع المساعدات التي كانت تقدمها لجنة الترفيه العالمية Unrra كانت تستغل وتستخدم لفائدة اليهود وخاصة لفائدة العناصر التي رأوا أن تنقل سراً من أوربا إلى فلسطين بعد الحرب للانخراط في سلك الحركة الارهابية اليهودية التي بدأت في أعقاب الحرب الأخيرة .

محنة اليهود :

ولم يكن الدافع للصهيونيين على استخدام العنف ضد الانجليز هو معارضتهم لقرارات الكتاب الأبيض فحسب بل كانت هناك عوامل أخرى ظهرت بعد الحرب وكان من شأنها أن تساعد على إيثارهم ذلك المسلك الوعر فقد قاسى اليهود فى وسط أوربا وشرقيها على أيدى النازيين والفاشيين أهوالاً يصعب تصورها فقد قضى الألمان عليهم فى المعسكرات بالميكروبات والغازات ومختلف الوسائل الوحشية حتى قدر بعضهم عدد اليهود الذين هلكوا فى أوربا مدة الحرب بنحو ستة ملايين من الأنفس . فلما انتهت الحرب خشى اليهود سوء المصير فى البلاد التى عاش فيها آباؤهم وأجدادهم وأيقنوا أنه لو كانت لهم دولة كفلسطين يلجأون إليها ما أصابهم ذلك الحيف .

وعلى ذلك بدأوا حملتهم ضد وقف الهجرة بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ولم تهدأ حركة الهجرة القهرية إلا حينما أصرت الحكومة الانجليزية على الابحار بالمهاجرين إلى معسكرات أعدتها لهم فى قبرص . عند ذلك فت فى ساعد اليهود حين عرفوا أن الهدف النهائى للهجرة هو قبرص

لا فلسطين العزيزة وترتب على ذلك أن جدت على مشكلة اليهود فى فلسطين مشكلة أخرى زادتها تعقيداً ، هى مشكلة إيواء المشردين من أوربا .

ولا ننسى أن الحرب قد انتهت بتفوق أمريكا ، والولايات المتحدة بحزبيها على علاقات طيبة بالصهيونيين فظنوا أن الفرص قد واتتهم لمهاجمة الانجليز معتمدين على سكوت روسيا ومعاضدة الولايات المتحدة وفيها أربعة ملايين ونصف مليون يهودى يتبرعون للحركة الصهيونية سنوياً بما لا يقل عن ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار

الجمعيات الارهابية :

وقد أصبح لليهود بعد الحرب جيش سرى مدرب يعرف « بالهاجانا » ومعناها « الدفاع » وقد استطاعوا أن يسلحوا أنفسهم بما أتاح لهم اشتراكهم فى الحرب أن يحصلوا عليه من أنواع الأسلحة وبما صنعه الإرهابيون فى مصانع سرية خاصة أو جمعوه خلسه فى الداخل والخارج ولهم فى مختلف المستعمرات الزراعية التى أنشأوها فى فلسطين مخابىء ومخازن زودوها بمختلف الأسلحة والذخيرة استعداداً للكفاح فى الوقت المناسب وكانت الحكومة قد سمحت لتلك المستعمرات فى أثناء الثورات العربية أن يتخذوا قوات بوليسية فسهل على اليهود تحويل تلك القوات البوليسية إلى وحدات حربية

ويبلغ عدد المنتمين إلى فئة الهاجانا نحو ٦٠ ألف يهودى . وقد كوفح أفراد هذه الفئة عقب صدور الكتاب الأبيض ولكن الحرب أعطت اليهود الفرصة الذهبية للاستعداد الحربى فقد دربوهم على حرب العصابات فى الجبال وأنشأوا منهم فرقة للفدائيين أو الكوماندو واستخدمهم الحلفاء فى مختلف الميادين . فلما انتهت الحرب عاد الحظر على جماعة الهاجانا فنشطت المؤامرات والاعتداءات السرية وظهرت شعب ارهابية لم تعجبها سياسة الهاجانا المنظمة المعتدلة فنشأت جماعات أكثر جرأة وأشدعنفاً وفتكاً مثل جماعة اشترن Stern وهو اسم الطالب الشاب الذى تزعم الشعبة وقتل فى أثناء مقاومته البوليس فى بعض الحوادث ومن أعضاء هذه الشعبة الشابان اليهوديان اللذان اغتالا فى القاهرة لورد موين Moyne الوزير الانجليزى فى الشرق الأوسط وتابعه فى يناير سنة ١٩٤٥ ومنهم من حاول قتل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ما كما يكل ومن هذه الشعب الإرهابية جماعة «أرجون زفاى لومى» Irgun Zvai Leumi ومعناها الهيئة الوطنية الحربية

وتقوم هذه الشعب على نظم عسكرية دقيقة وغرضها الفتك برجال الحكومة الانجليزية ونسف الدور والمؤسسات الحكومية

والاعتداء على البوليس وضباط الجيش الانجليزى .

ومن عجب أن هذه الجماعات الإرهابية قد وجدت جواً ملائماً لاعتداءاتها وبث دعايتها السرية وذلك لاطمئنان أعضائها إلى عطف اليهود عليهم وكتمان أسرارهم وحركاتهم وإيوائهم إياهم فى دورهم وكفالة مصالحهم بعد ذهابهم . وقد زاد خطر هذه الجماعات أن البذرة الإجرامية قد وجدت طريقها إلى المدارس ومناهج التعليم اليهودية وأن الوكالة اليهودية قد قررت أن يقضى الشبان مدة عام فى التدريب العسكرى وقد طبقوا ذلك أخيراً على تلاميذ المدارس الثانوية بين السابعة عشرة والثامنة عشرة . وإذا استمرت الحال على هذا المنوال فإن الحركة الصهيونية لا تلبث أن تتحول إلى نظام فاشى أو نازى بالغ منتهى الخطورة فى بلاد الشرق الأوسط .

وما دام هناك تصميم بين اليهود على مواصلة المهاجرة غير المشروعة وما دامت الوكالة اليهودية تدبر الخطط والمشروعات سراً وعلانية لنقل اليهود من أوربا إلى فلسطين متحدية فى ذلك حكومة الانتداب فستظل المؤامرات والجمعيات السرية ناشطة وتظل كلمة القانون فى فلسطين لغواً وهباء .

ويكفى أن يكون لليهود تلك القوات القائمة المسلحة ليختل

الأمن بل إن وجود هذه القوات يعتبر فى حد ذاته أمراً جليل الخطر على الأمن والسلام فى العالم لا فى فلسطين وحدها . ولا ننس أنه إذا كانت جيوش اليهود السرية تعد بالآلاف فإن العرب الذين يحيطون بفلسطين من جميع الجهات يبلغون عشرات الملايين وإذا كانت اليهود فى العالم أكثر مالا وأكمل استعدادا فليس من شك فى أن العرب أشد إيماناً وأكثر استبسالا وأعز نفراً .

وليس أدل على حقيقة شعور اليهود حتى المسئولين منهم نحو الحركة الإرهابية بما جاء على لسان زعمائهم أمام لجنة التحقيق الأمريكية الانجليزية فقد أبدوا أسفهم الشديد للأعمال الارهابية التى ترتكب ولكن واحداً منهم لم يبد استهجانه لهذه الأعمال أو يتمن زوالها بل تلمس لهم زعماؤهم الأعذار ما دامت الحكومة الانجليزية تعمل ضد مصلحتهم وتعرقل حرية المهاجرة إلى فلسطين مخالفة بذلك وثيقة الانتداب. ولا عبرة بإعلان تبرؤ وكالة اليهود من أعمال الارهابيين ولا باختلاف الرأى بين المعتدلين منهم والمتطرفين فالجميع سواء منهم المعتدلون والمتطرفون يلتقون عند هدف واحد وهو فتح باب الهجرة إلى فلسطين على مصراعيه حتى تكون لهم الكثرة فى البلاد .

أمريكا والمسألة الصهيونية :

ولكن بريطانيا وقفت عند رأيها الذى أذاعته فى ١٩٣٩ – ١٩٤٠ واحترمت نصوص الكتاب الأبيض فلما أعلن مستر ترومان رئيس الولايات المتحدة رغبته إلى رئيس الحكومة البريطانية فى الترخيص بهجرة ١٠٠٫٠٠٠ يهودى إلى فلسطين تفريجاً لأزمة اليهود المشردين فى أوربا من جهة واستمالة للرأى اليهودى الأمريكى من جهة أخرى رأت حكومة العمال الانجليزية التى تولت الحكم عقب انهاء الحرب فى صيف ١٩٤٥ أن الفرصة قد سنحت لإعلان رأيها فى مسألة فلسطين وفى هذه المرة لم يترك الأمر لوزارة المستعمرات البريطانية بل تولته وزارة الخارجية . وكان هذا التحول طبيعياً بعد أن أصبحت مشكلة فلسطين مشكلة عالمية من جهة وبعد أن ارتبطت الحكومة الإنجليزية فى الكتاب الأبيض باستشارة الدول العربية فى موضوع الاستقلال كما استشارتها فى مؤتمر سنة ١٩٣٩ .

لذلك أعلن مستر بيفن وزير الخارجية الانجليزية أن محنة اليهود فى أوربا فى العهد النازى تستدعى عطف العالم وأن اليهود يطالبون الآن برفع القيود التى وضعت للحد من الهجرة

والتصريح لهم بإيواء أعداد كبيرة من اليهود فى فلسطين ولكن فلسطين وحدها لا تكفى لمعالجة موضوع إيواء اليهود جملة .

ثم ذكر أن موضوع اليهود قد أثار اهتماماً خاصاً فى أمريكا وبريطانيا وفى أملاك الدولة البريطانية كما أثار اهتمام الدول العربية المجاورة ونحو تسعين مليوناً من مسلمى الهند . وبما أن حكومة الولايات المتحدة قد طلبت من الحكومة الانجليزية ألا يتخذ قرار نهائى بشأن النظام الأساسى فى فلسطين إلا بعد التشاور التام مع العرب واليهود فقد وجهت الحكومة الانجليزية الدعوة إلى الولايات المتحدة للتعاون معها فى تكوين لجنة مشتركة لبحث الحالة فى فلسطين من الوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأثير هذه الحال فى مسائل هجرة اليهود واقامتهم فى فلسطين ورفاهية السكان الحاليين . وعلى اللجنة أن تدرس أيضاً حالة اليهود فى أوربا وتحصى الذين يريدون الهجرة راضين أو مكرهين إلى فلسطين أو غيرها من البلاد خارج أوربا .

وقد أشار مستر بيفن فى خطابه إلى استمرار قبول المهاجرين بصفة موقتة حتى تنتهى اللجنة المشتركة من تقديم تقريرها وقد حدد المهاجرين الذين يقبلون بمعدل ١٥٠٠ شهرياً . كما أشار إلى إمكان تحويل الانتداب على فلسطين إلى وصاية وفقاً لميثاق هيئة الأمم المتحدة .

وكان إعلان انجلترا لهذه السياسة الجديدة سبباً فى اثارة النشاط السياسى بين العرب فعملوا على إعادة تكوين اللجنة العربية العليا فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان أول أثارها أن أرسلت ردها على مذكرة الحكومة البريطانية . وقد جاء فيه :

« إن الكلمة الأولى والأخيرة فى قضية فلسطين ومصيرها هى للشعب العربى الفلسطينى الذى يعتز بعطف الحكومات العربية عليه . . . والذى لا يعترف لأية دولة أجنبية أو أى شعب غريب بأى حق فى تقرير مصيره ومصير بلاده . »

وقالوا إن العرب لا يرون أى مبرر لأن يربط مستر بيفن بين مشكلة اليهود فى أوربا وبين فلسطين والهجرة اليهودية إليها وليس للعرب أن يتحملوا أوزارها ونتائجها وهم غير مسئولين عن تلك المشكلة .

وقالت اللجنة عن قرار الحكومة باستمرار الهجرة إنه مجحف كل الاجحاف بحقوق العرب ومصالحهم ونقض لسياسة رسمية وضعتها الحكومة البريطانية بمحض اختيارها . ويعتبر العرب أن قضية فلسطين قضية قائمة بينهم وبين بريطانيا العظمى ولايعترفون لأحد بحق التدخل فى هذه القضية . . . لذلك فانهم يعجبون لإشراك

بريطانيا العظمى للولايات المتحدة الأمريكية فى هذه القضية . . . ثم إن الولايات المتحدة شعباً وحكومة أظهرت تحيزاً بيناً ومحاباة ظاهرة نحو اليهود ومطالبهم ومطامعهم . . . فكيف يجوز والحالة هذه أن تكون الولايات المتحدة حكماً فى موضوع سبق لها أن أعلنت رأيها فيه » .

وكانت الحكومة البريطانية قد أخطرت الحكومات العربية بتصريحها الأخير فأعدت الجامعة العربية رداً على الحكومة البريطانية بعثت به إلى مستر بيفن وقد جاء فيه: «إن العرب يقدرون لكم فصلكم المسألة الصهيونية عن المسألة اليهودية ورغبتكم فى مساعدة يهود أوربا وغيرهم ممن اضطهدوا فى العهد النازى والفاشى . والدول العربية ترى فى هذا المسعى عملا إنسانيا مشكوراً لذاته . . . لا يعالج ظلماً قديماً بظلم جديد ولا يمحو اضطهاداً باضطهاد غيره . ولو أن الصهيونية تحققت أغراضها لأدى ذلك إلى حرمان العرب من وطنهم ومن حقوقهم القومية وما تقتضيه المبادئ الديمقراطية من أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم فى الأرض التى ورثوها عن آبائهم منذ الأزل وذلك اضطهاد للعرب لا يقل قسوة عما يشكوه العالم من اضطهاد اليهود . . .

« وقد أشرتم فى بيانكم إلى رغبتكم فى استمرار قبول عدد من اليهود فى فلسطين بعد دخول الخمسة والسبعين ألف مهاجر الذين

ذكرهم الكتاب الأبيض وأردتم مشاورة العرب والحصول على موافقتهم على استمرار الهجرة بالنسبة الحالية . . . وليس فى بيان سعادتكم ما يستدل منه على القدر الذى تساهم به الولايات المتحدة أو الإمبراطورية البريطانية فى الوقت الذى تقترحون فيه هجرة جديدة إلى بلد عربى . كذلك لا تجد الجامعة فى بيانكم ما يسوغ طلب الهجرة إلى فلسطين إلا أنه نتيجة للضغط السياسى الصهيونى فى بريطانيا وفى بلاد أخرى صديقة . . . (يريدون أمريكا) وذلك فى نظر العرب لا يصلح سبباً لسماحهم بهجرة جديدة . . . والدول العربية واثقة من أن المبادئ الديمقراطية التى يقوم عليها نظام الأمم المتحدة الذى تشترك فيه الدول العربية لا يدع مجالا لأى شك فى حق عرب فلسطين فى توجيه حياتهم الوجهة التى يريدونها وهى استقلال فلسطين الذى ينتظر العرب تحقيقه بأسرع ما يمكن . . . »

وعلى رغم اعتراض العرب على استمرار هجرة اليهود إلى فلسطين فان بريطانيا قد زعمت لنفسها أنها ابرأت ذمتها باستشارة العرب وإن لم تنتظر موافقتهم ولم تجد الجراة على إغضاب أمريكا فصرحت لليهود بالهجرة للعدد الذى حددته . فأغضبت بذلك العرب لمخالفتها قرار سنة ١٩٣٩ واليهود إذ لم تفتح لهم باب الهجرة على مصراعيه . ومن ثم نشط الارهابيون فى حملتهم الاجرامية

ضد الأفراد والجماعات والمنشآت الحكومية العامة فى فلسطين .

تقرير اللجنة الانجليزية الأمريكية :

وفى مايوسنة ١٩٤٦ صدر تقرير اللجنة الانجليزية الأمريكية بعد تحقيقات وزيارات قامت بها اللجنة فى أوربا وبلاد الشرق الأوسط فجاء التقرير حملا جديداً فوق أحمال من التقارير العديدة السابقة التى وضعت على الرف ولم يعمل بها

وامتاز هذا التقرير على سوابقه بأنه لم يظفر بشىء من الرضا عند أحد المتنازعين ويظهر أن رئيس اللجنة القاضى الأمريكى هتشسون Hutcheson قد أراد أن يصدر وثيقة يبرر فيها طلب الرئيس ترومان بشأن الهجرة فجاء التقرير مؤيداً لنظرية الصهيونيين فى حرية الهجرة وحرية امتلاك الأراضى ولكنه خذلهم فى فكرة الدولة الصهيونية وهذا كل ما فيه مما يلائم سياسة العرب إلى حد ما . فقد صرحت اللجنة أنه يجب ألا يسيطر اليهود على العرب ولا العرب على اليهود وأن فلسطين لن تكون لليهود ولا للعرب ولكن للعالم أجمع لليهود والمسيحيين والمسلمين وأن تتولى الوصاية عليها هيئة الأمم المتحدة . وإلى أن تتم إجراءات الوصاية تقوم الدولة المنتدبة بحكم البلاد وعليها أن تصرح فوراً بهجرة ١٠٠٫٠٠٠ يهودى دون أن تلزم نفسها استشارة العرب فى ذلك وعليها أن تلغى قوانين سنة ١٩٤٠ التى

حددت الملكية لليهود . ونصحت للجماعات الارهابية أن تكف عن عدوانها وأن تتفق فوراً مع حكومة الانتداب كما نصحت للحكومة الانجليزية ألا تتوانى فى تنفيذ مقترحات اللجنة وقالت عن الحكومة المثالية التى ستقوم آخر الأمر فى فلسطين مستندة إلى الضمانات الدولية : إنها ستحمى وتصون مصالح النصارى والمسلمين واليهود على السواء فى الأرض المقدسة وإنها ستمنح جميع السكان أوفى قسط من الحكم الذاتى

ثم أشارت اللجنة إلى حاجة فلسطين إلى السلم وهددت الفريقين إذا هما لم يذعنا لمقترحاتها قائلة : « إنها توصى بأن يكون اليهود والعرب معاً على ثقة تامة بأن كل محاولة من جانب فريق منهما لمنع تنفيذ هذا التقرير بالالتجاء إلى أعمال العنف أو بالارهاب أو بتنظيم أو استخدام جيوش غير مشروعة — ستقمع قمعاً تاماً » .

واستقبلت الحكومة الانجليزية التقرير بما يستحق من الاغضاء والصمت بل إنها حاولت أن تفكر من جديد فى تنفيذ تقرير التقسيم الذى اقترحته لجنة بيل Peel سنة ١٩٣٧ وبدأت الحكومة الانجليزية تدعو إليها زعماء العرب واليهود للوقوف على آرائهم النهائية بشأن موضوع النزاع .

فلما أعيتها الحيل معهم أعلن مستر بيفن فى فبراير سنة ١٩٤٧

أن محادثاته مع العرب والهيئة الصهيونية لم تأت بنتيجة وأن المشكلة القائمة لا يمكن حلها بالمفاوضة مع الفريقين كما أنه ليس لحكومة جلالة الملك تحت نظام الانتداب أن تعطى فلسطين لليهود أو للعرب أو أن تقسمها بينهما . ولم يبق إلا أن تعرض المشكلة للتحكيم أمام هيئة الأمم المتحدة .

ولم تشأ الحكومة أن تعرض الموضوع أمام مجلس الأمن لأنها لا تعتقد أن المسألة مما يهدد السلام العام من جهة ولأن المسائل الخاصة بالشعوب التى تحت الانتداب أو الوصاية تعرض وفقاً للميثاق أمام الجمعية العمومية .

القضية وهيئة الأمم المتحدة :

وقد دعيت الجمعية العمومية لهيئة الأمم إلى اجتماع استثنائى فى أبريل سنة ١٩٤٧ وتقرر تأليف لجنة محايدة لا تشترك فيها الدول الكبرى وتتألف من ١١ عضواً لتحرى حقائق موضوع النزاع(١) .

وقد حاولت الحكومات العربية المشتركة فى هيئة الأمم أن

---

(١) تتألف اللجنة من مندوبي كل من الدول الآتية برياسة المندوب السويدي القاضى ساندستروم : السويد — كندا — استراليا — الهند — بيرو هولنده — إيران — تشكوسلوفاكيا — يوغسلافيا — جواتيمالا — اروجواى

تحمل الجمعية على تقرير إلغاء الانتداب على فلسطين أو أن يكون استقلال فلسطين من الأسس التى تقوم عليها أبحاث اللجنة فلم تفز بطائل وفضلت الكثرة أن تكون اللجنة حرة وغير مقيدة باتجاهات معينة .

وأهم ما اتجهت إليه أنظار الدول فى أثناء انعقاد جلسات الجمعية موقف مندوب روسيا وقد كان المعروف أن روسيا البلشفية لا تضمر أى ميل إلى جانب الصهيونية فقد كانت تتهم الصهيونية بأنها أداة للاستعمار البريطانى وما دامت الشعوب العربية تناوئ الاستعمار البريطانى والفرنسى فقد كان المتوقع أن تكون روسيا إلى جانب العرب وتستنكر الحركة الصهيونية . فلما بدأت المناقشة فى موضوع اللجنة الدولية التى أرادتها انجلترا لبحث الموضوع وتكلم مسيو جروميكو مندوب روسيا أمام هيئة الأمم فوجئ العالم بموقف روسيا . وكان العرب أول الناس تأثراً من وقع تلك المفاجأة فقد قلب المندوب الروسى موقف روسيا رأساً على عقب وأبدل عداءه للصهيونية عطفاً ومودة ولم يشأ أن يعلن عداءه للعرب صراحة ولكنه لم يتهيب أن يقول « إن من الظلم أن ننكر على اليهود حقهم فى تحقيق أمانيهم » ولكن الدبلوماسية الروسية لم تشأ أن تقيد نفسها بحل معين قبل الاطلاع على تقرير اللجنة واغتنمت الفرصة لمهاجمة سياسة

الانتداب الانجليزية وقالت إنها سياسة فاشلة تماماً وإنها سياسة مفلسة ويكفى للدلالة على فشلها أن تبلغ نفقات البوليس فى سنة ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ ثمانية عشر مليون دولار ونصف على حين لا تزيد نفقات التعليم والصحة والاصلاحات الاجتماعية لم على خمسة ملايين دولار .

الخاتمة

ولا يسعنا ونحن نختتم هذا الموضوع إلا إبداء إعجابنا ودهشتنا من أن تكون خاتمة المطاف بالدولة المنتدبة بعد ثلاثين عاماً أن تعود بالقضية إلى الهيئة العالمية وتتراجع إلى الفكرة الدولية التى كانت قد اتفقت عليها مع فرنسا وروسيا سنة ١٩١٦ فى معاهدة سيكس ــ بيكو وفحواها أن تخضع فلسطين لنظام دولى يقرر بعد الحرب العالمية الأولى ويستشار بشأنه الشريف حسين ــ فلو أن بريطانيا عند ما نكثت بعهدها للعرب وأخرجت فلسطين من حدود الدولة أو الدول العربية المستقلة ــ نفذت ما تعاقدت عليه وسمحت بقيام حكومة فى فلسطين لها طابعها الدولى بدلا من نظام الانتداب لما آل أمر البلاد إلى ما هى فيه الان من تناحر بين اليهود والعرب ومن اضطرابات وثورات لا تزال

مستعرة منذ تنفيذ الانتداب البريطانى وكانت من أهم أسباب تأخر البلاد السياسى .

ولم يكن وقتئذ على بريطانيا غضاضة فى أن تضطلع عصبة الأمم بمهمة الحكم فى فلسطين فقد كان لبريطانيا وحلفائها فى عصبة الأمم مكانة ممتازة، ولكنها سياسة الاستعمار القديمة التى تغلبت بعد الحرب العالمية الأولى كما لا تزال تتغلب على الدول الكبرى إلى الآن . وقد كانت انجلترا وفرنسا فى أول الأمر تحسبان حساب الرئيس ولسون وحكومة الولايات المتحدة فلم تفصحا تماماً عن أغراضهما الاستعمارية ولكنهما حين عاد ولسون إلى أمريكا وقد خذله الكونجرس الأمريكى فلم يوافق على معاهدة فرساى ولا على دخول الولايات المتحدة عصبة الأمم اطمأن خاطرهما وأمعنتا فى أساليبهما التعسفية الاستعمارية وعلى ذلك رمت انجلترا بالنظام الدولى فى فلسطين عرض الحائط .

وكان هذا التنكر للوعود الأولى وقيام حكومات ضعيفة متخاذلة فى انجلترا وفرنسا فى الفترة التى توسطت الحربين العالميتين من أهم العوامل التى ساعدت على طغيان الفاشية والنازية فى أوربا بل فى العالم أجمع . فلما تنبهت الشعوب إلى الخطر المحدق بها كانت الفرصة قد أفلتت والاستعدادات للحرب

قد كملت أو أوشكت ، فنشبت الحرب وبقيت مسألة فلسطين على تعقدها .

وليس تعقد المشكلة فى تشعب مصالح الفريقين واختلاف أهدافهما فحسب بل فيما أحاط بالموضوع من دعاية جامحة استمرت بلا هوادة نحو ثلاثين عاماً فحولت العالم كله إلى فريقين

جامعة الدول العربية وفلسطين :

وبقدر ما كان للصهيونيين من قوة وأسناد دولية فى نشر الدعاية إلى جانبهم وجد العرب من إنشاء الجامعة العربية وتوقيع ميثاقها فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ومن اشتراك دول العرب المستقلة فى هيئة الأمم المتحدة أكبر دعاية لقضيتهم وأعز نصير لهم فقد أصدرت جامعة الدول العربية ميثاقها بحضور مندوب يمثل عرب فلسطين وأتبعته بقرار خاص بالقضية الفلسطينية قالت فيه

« إنه منذ نهاية الحرب العظمى الماضية سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولة العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لأية دولة أخرى . . . وإذا لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فان ميثاق العصبة سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذى وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باستقلالها . فوجودها واستقلالها الدولى من الناحية الشرعية أمر

لا شك فيه ، كما أنه لا شك فى استقلال البلاد العربية الأخرى . وإذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة . ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربى من فلسطين للاشراك فى أعماله ».

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٥ قرر مجلس الجامعة العربية مقاطعة البضائع الصهيونية وترك لدول الجامعة اتخاذ الوسائل التى تتبعها لتنفيذ القرار . كما أنه تألفت لجنة عليا لانقاذ أراضى فلسطين من اليهود وإنشاء مكاتب عربية فى لندن وواشنجتون والقدس ومع أن تنفيذ مثل هذه القرارات يكون فى بعض الأحوال عرضة للنقض أو التحايل أو الإهمال فإن تأثيره على المشروعات الصناعية الكبرى فى فلسطين التى تعتمد على رؤوس الأموال الأجنبية لا بد أن يكون عظيماً .

وقد أقرت اللجنة الانجليزية الأمريكية فى تقريرها بأنه ولو أن أثر المقاطعة لم يظهر بعد فإنهم لاحظوا حركة متعطلين فى الخفاء ونزولا فى أرباح عمال المصانع .

ولا ننسى أن الميزان التجارى فى فلسطين يميل ضد مصلحتها .

فقد بلغت قيمة الواردات فى ١٩٤٥ : ٣٢٧ر٦٩١ر٤٠ جنيه فلسطيني . ولم تزد الصادرات على ٩٩١ر٣٩٥ر٢٠ جنيه فيكون الميزان التجارى قد مال ضد مصلحة فلسطين بمقدار عشرين مليون جنيه فلسطيني وقد يخفف من وطأة هذا الفرق أن اليهود فى العالم يمدون إخوانهم فى فلسطين بفيض دافق من المال وأن الحجاج والسياح لا يزالون يزورون البلاد سنوياً فتنتعش فيها حركة التجارة . ولكن الميزان يبقى مع هذا مطرد الميل ضد فلسطين والزيادة فى الصادرات لا تتناسب مع زيادة الواردات فبينما بلغت زيادة الواردات فى سنة ١٩٤٥ على قيمتها فى سنة ١٩٤٤ نحو ١٥ مليون جنيه فإن الزيادة فى الصادرات فى المدة نفسها لم تزد على ستة ملايين . وإذا استمرت الحال على هذا المنوال فان عدداً كبيراً من اليهود سيأخذ فى الرحيل عن البلاد عاماً بعد عام على الرغم من الضغط والضيق اللذين يلقونهما من الجماعات الارهابية والطريقة المثلى لعلاج المشكلات السياسية المعقدة فى هذا العصر هى استخدام السلاح الاقتصادى فقد لجأت إليه الولايات المتحدة أخيراً ووافقتها عليه انجلترا وفرنسا فاضطرت روسيا إلى التسليم ولو مؤقتاً بأهمية هذا السلاح ولولاه لبقيت الدول الكبرى فى نقاش ومجادلات ومناورات سياسية لا تنتهى . وإذا كان السلاح الاقتصادى قد أقنع

حكومة السوفيت بضرورة التفاهم مع حلفائها فأخلق بهذا السلاح إذا ثابر عليه العرب وأخلصوا فى تنفيذه وأحسنوا استخدامه أن يقنع اليهود وهم أرباب المال والاقتصاد إما بترك البلاد والتشتت فى أنحاء العالم كما تعودوا منذ عشرات القرون وإما بالاتفاق مع جيرانهم على ما يرضيهم ويطمئن خواطرهم القلقة وهم يعلمون أن العرب فى فلسطين وغيرها لا حاجة لهم بالصهيونيين قلو أو كثروا . أما الصهيونيون فحاجتهم إلى رضاء العرب عنهم أمر حيوى لا استقرار لهم بدونه فى النهاية .

هذا وقد بدأت اللجنة التى ألفتها هيئة الأمم أعمالها فى بحث حالة فلسطين منذ منتصف شهر يونيو الماضى وإذا كانت اللجنة العربية العليا فى فلسطين قد رأت مقاطعة اللجنة سياسيا لزهد العرب فى القرارات النظرية التى تصدرها هذه اللجان ومعظمها فى مصلحتهم فإن الدول العربية ستجيب اللجنة إلى دعوتها فيجتمع مندوبو الحكومات العربية بأعضاء اللجنة قبل مغادرتهم البلاد وستتقدم اللجنة بتقريرها فى شهر سبتمبر المقبل حتى يتسنى للجمعية العمومية التى تنعقد عادة فى الخريف أن تنظر فى قضية فلسطين .

الحلول الأربعة :

ولا مناص من أن تنتهى هيئة الأمم إلى واحد من الحلول الآتية :

الأول — أن تعلن فلسطين دولة عربية صرفة وفى هذه الحالة يتعين على هيئة الأمم أن تقصى عنها الصهيونيين الذين يبلغ عددهم الآن أكثر من نصف مليون .

وهذا أمر يتعذر تنفيذه إن لم يستحل لأنه لا يوافق سياسة الولايات المتحدة ولا سياسة روسيا ويناقض تصريح بلفور فى سنة ١٩١٧ ثم إن إجراءً كهذا لا بد أن يقابله اليهود بهجوم حربى عنيف .

الثانى — أن تحول فلسطين إلى دولة صهيونية صرفة ويبعد العرب عنها .

ومثل هذا الإجراء التعسفى لا بد أن يثير الدول العربية ويحملها على الاستعداد للحرب وفى هذه الحالة ينضم إلى الجامعة العربية مسلمو الهند وعددهم تسعون مليوناً كما ينضم المسلمون والمسيحيون فى البلاد الشرقية عامة وحينئذ تتعرض الامبراطورية البريطانية وفرنسا لخطر داهم محقق . وإذا اندلعت شرارة الحرب فى هذه المنطقة فلن يتأخر شبوب الحرب العامة .

الثالث – أن تصر هيئة الأمم على تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية

وقد تجد هيئة الأمم مبرراً لهذا الاقتراح ما أخذ به أخيراً لحل مشكلة الهند بتقسيمها إلى هندستان وباكستان، وما أخذ به فى أيرلنده قبل ذلك بتقسيمها بين جمهورية ايره والستر وفى هاتين الحالتين يقوم التقسيم على أساس دينى . ولكن مثل هذا التقسيم قد يرضى كثرة اليهود ولكن العرب سيرفضونه حتما لأن البلاد لا تحتمل القسمة وقد سبق أن حاولت الحكومة الانجليزية تنفيذ اقتراح القسمة فوجدته اقتراحاً غير عملى . وفى حالة الإصرار على القسمة سيضطر العرب إلى الالتجاء إلى القوة ومن ثم يضطرب الأمن ويتعرض السلام فى تلك المنطقة للخطر .

الرابع – أن تحاول هيئة الأمم أن تصلح بين الفريقين بقبول الحالة الراهنة على أن يلغى الانتداب الانجليزى وتحل هيئة الأمم المتحدة محل انجلترا بصفة ما .

وهذا الحل لا يقبله اليهود إلا إذا ضمنوا زيادة عدد مهاجريهم ولا يقبله العرب إلا إذا اقترن بشرطين أساسيين : إعلان استقلال فلسطين وعدم زيادة المهاجرين اليهود على عددهم الحالى . وقد يكون اعلان الاستقلال مصحوباً باشتراط نظام اتحادى أو فدرائى يتفق عليه .

ويبدو أنه لا سبيل إلى ايجاد حل للمشكلة إلا عن هذا الطريق وعلى رغم ما فى هذا الحل من تحيف ظاهر لحق العرب إذ يفرض عليهم أن يعترفوا مكرهين بالوضع الراهن لليهود فى البلاد وهو وضع ما فتئوا يستنكرونه منذ ظهور تصريح بلفور فإن العرب قد يقبلونه إذا أجيبوا إلى الشرطين السابقين تضحية منهم فى سبيل إقرار السلام لهذه الأرض المقدسة .

أما عن الهجرة فقد رأينا الحالة الاقتصادية فى البلاد لا تساعد فى المستقبل على زيادة المهاجرين إلى فلسطين بل إنها على العكس تفرض ترحيل بعض المهاجرين منها .

ويتضح من الاحصاءات أن عدد اليهود الذين نزحوا عن البلاد فى السنين التى ساد فيها السلام بين سنتى ١٩٢٥ و١٩٢٧ قد أخذ يتزايد إذ بلغ فى سنة ١٩٢٥ — ٢١٥١ نازح مقابل ٣٣٨٠١ مهاجر وفى سنة ١٩٢٦ بلغ عدد النازحين ٧٣٦٥ مقابل ١٣٠٨١ مهاجر وبلغوا فى سنة ١٩٢٧ : ٥٠٧١ مقابل ٢٧١٣ مهاجر — أى أن عدد اليهود الذين نزحوا عن فلسطين فى سنة ١٩٢٧ قد بلغ نحو الضعف من عدد المهاجرين إليها . وتقدر اللجنة الأمريكية الانجليزية عدد اليهود الذين استوطنوا فلسطين فى السنوات العشر الأخيرة وزهدوا فى الجنسية الفلسطينية فلم يقدموا طلباتهم باكتسابها بنحو ثلث عددهم . لذلك لا يبعد

أن يعيد التاريخ نفسه فيأخذ عدد اليهود النازحين عن فلسطين فى الزيادة متى استقرت الأحوال فى البلاد وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعى . وقد أكدت اللجنة الأمريكية الانجليزية المذكورة أن مشكلة المشردين والمهاجرين من يهود أوربا أكبر وأكثر تعقيداً من أن تقوى فلسطين وحدها على تقديم العلاج الناجع لها بل لقد أبدت اللجنة رأيها صريحاً فى هذا الصدد واعترفت إلى جانب توصيتها بقبول مائة ألف مهاجر يهودى — بأن المشكلة بصفة عامة جديرة بعناية خاصة من جانب هيئة الأمم المتحدة وأن الواجب يقضى بإعادة الأملاك إلى اليهود الذين اضطهدوا وصودرت أملاكهم فى بلدان أوربا وتكليف حكومات تلك الدول تعويض اليهود عما أصابهم مادياً وأدبياً (١). وبذلك ينتفى اعتراض اليهود على وقف الهجرة ويتحقق ما قصد أولا من إنشاء الوطن القومى لليهود فإن علاقتهم بفلسطين ستظل موصولة وستبقى لليهود جامعتهم ومؤسساتهم وبلدياتهم ومزارعهم ولكن عليهم كما قلنا فى المقدمة أن يخضعوا لقوانين البلاد ودستورها الذى يرتضيه أهلها ، شاكرين ما أفاء الله عليهم من نعمته إذ ردهم إلى أرض المعاد ، فلا يخونون البلد الذى آواهم من تشريد وأمنهم من خوف وأحلهم بين ظهرانيه محل الكرامة دون بلاد الله أجمعين » .

(١) انظر تقرير اللجنة الأمريكية الأنجليزية عن فلسطين أبريل سنة ١٩٤٦

فهرس

		صفحة
خريطة :	فلسطين فى مفترق الطرق	٤
تقديم :		٦
الفصل الأول :	وعد غير مسئول	١١
الفصل الثانى :	انتداب و«حكومة داخل حكومة»	٤٢
الفصل الثالث :	الحكمة بعد وقوع المحظور	٧١
الفصل الثالث :	الحل الأخير	٩٢

الله

كتاب عن نشأة العقيدة الإلهية

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

بحث مستفيض فى أصل الاعتقاد بين الأقوام البدائية، وإلمام بالعقائد التى تقدمت فى عصور الحضارة ، وعقائد المؤمنين بالكتب السماوية ، مع تناول مذاهب الفلاسفة الأسبقين والتابعين ، ومذاهب الفلسفة العصرية، وكلمة العلم الحديث فى مسألة الإيمان . فهو بحث واف فى أطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد (٤٠ قرشاً)

الفلسفة فى الشرق

تعريب الأستاذ محمد يوسف موسى

ألف هذا الكتاب الأستاذ « بول ماسون — أورسيل » مدير مدرسة الدراسات العليا فى باريس ينقض فيه الرأى القائل إن الفلسفة نشأت أول أمرها فى اليونان ، ويقيم الدلائل التاريخية على أن الشرق سبق الغرب فى هذه الناحية . فالغرض من هذا الكتاب هو تركيز الفلسفة الغربية فى وسط مجموعة التفكير الإنسانى ، والإشارة إلى الصلات التى كانت بين الفلسفات الشرقية المختلفة ، وبينها وبين الفلسفة الغربية (٣٠ قرشاً)

الجوارى المغنيات

للاستاذ فايد العمروسى

أول كتاب فى المكتبة العربية يجلو حياة كواكب الغناء العربى وما فيها من لمحات تاريخية تكشف عن شخصيات الخلفاء والأمراء والقواد والشعراء ، وحياة اللهو العربى المترع بالمجون والفتون ، فى أسلوب قصصى ممتع (٢٥ قرشاً)

كأس الحياة

للاستاذ إبرهيم المصرى

مجموعة قصص نفذ فيها المؤلف إلى أعماق النفس البشرية ، فسبر غورها ، وحلل دقائقها ، وكشف عن نبعة العواطف فيها ، وما يعتورها من سمو وضعة (٢٠ قرشاً)

أبو الفوارس

للاستاذ محمد فريد أبو حديد بك

قصة البطولة العجيبة والغرام الجامح ينبعثان من قلب يهزأ بالسيوف ويخشى فتكات العيون ، هو قلب الفارس العربى عنترة بن شداد العبسى ، الذى نفذ المؤلف إلى أعماقه فصور خلجاته وأحلامه وآلامه فى أسلوب أنيق وتصوير بارع أخاذ (٢٠ قرشاً)

روضة الطفل

١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلّة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء



ثمن النسخة
مـ
٧

أول مجموعة من نوعها
باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصًا مفيدة
مزينة بالصور المبتكرة
ومطبوعة بالألوان الجميلة

المجموعة الجديرة بأن توضع بين يدى كل طفل
لتصعد به إلى الدرجة الأولى من سلم المعرفة
فى جوٍّ من المتعة والتسلية ....

تصدرها
دار المعارف بمصر



أولادنا

١ عمرون شاه
٢ مملكة السحر
٣ كريم الدين البغدادى
٤ آلة الزمان

قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجلوله في جميع مراحل النمو
عناصر المتعة والثقافة وسمو النفس

المجموعة التي تحبب الكتاب الصالح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيرًا ويتعلق به كبيرًا
ويكون له نعم الزاد في سفرة الحياة

تصدرها
دار المعارف بمصر